الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

لؤي حمزة عباس

مدينة الصور

رواية

مدينة الصور

لؤي حمزة عباس

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1432 هـ - 2011 م

ردمك 978-614-01-0217-0

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

دار أزمنة للنشر والتوزيع

ص.ب: 950252 عمّان 11195

البريد الإلكتروني: info@azminah.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب **لا** تعبر بالضرورة عن رأي **الناشرين**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

وهكذا التقطتُ خيطَ الرحلةِ من التراب بأسناني

واستغرق وصولي إلى بيتي ألفَ ليلة

وليلة

الوصول إلى مدينة أين،

سركون بولص

أجل، ثبِّ وثبتك الأخيرةَ نحو الشمس يا موبي ديك!

دنتْ ساعتُك ودنا من يدي الرمحُ الذي سيرديك!

موبي ديك، هرمان ملفل

شيء ما يتغيّر. شيء لا يكاد يُرى. لكنه يُحسُّ على الوجوه. بملامحها الموهنة. مثل أثر جرح قديم مندمل.

ركبت من كراج المعقل متوجهاً إلى العشار عبر طريق المحطة. الطريق الذي أُحبه. لا لشيء إلا لكونه يمرّ بمحطة القطار بنوافذها المطلّة على الشارع. خضراء قاتمة. وبوابتها الخشب البُنيّة العالية. أمامها يتوقّف الباص. ينزل ركاب ويصعد ركاب. ألتفت وأرى أناس المحطة غير الناس العاديين. إنهم هم بملامحهم الجنوبية وسحناتهم التي لوّحتها شمس البصرة. لكن شيئاً ما يتغيّر لحظة دخولهم المحطة كأنهم يتنفسون هواءً آخر. كأن دماً جديداً يتدفق في عروقهم. فتتبدل ملامحهم وتخفُّ حركاتهم.

خطوة هنا وخطوة هناك.

من دون أن يُحسَّ أحد منهم أنه لم يعد كما كان منذ لحظة فحسب.

وأن المسافة بين خارج المحطة وداخلها مسافة بين عمرين.

سيظل مرأى المحطة يرنُّ في رأسي. ببطء وتمهّل. بانتظار الزمن الذي أدخلها فيه فأرى القطار معبأ بالجثث. وأعرف أن القطارات التي تمتد جسراً

بين حياتين يمكن أن تخترق النفق المظلم بين الحياة والموت. تتبعها أصداء صيحاتها الموجعة.

كان الباص قد تحرّك وعاودت جلستي متكئاً على الكرسي.

بين استدارة وأخرى ألتفت لأرى العالم خارج النافذة.

على رصيف الشارع المقابل لميناء المعقل رأيته. رأيت دشداشته البيضاء ومشيته البطيئة فعرفت أنه هو. كان يسير في اتجاه سير الباص. لكن صوتاً ما همس في أذني إنه هو. وهو الصوت الذي همس في أذنه ليتوقف ويلتفت.

عندما مرّ الباص من أمامه رأيته يستدير. رأيت عينيه تبحثان دونما تركيز بين وجوه الركاب القريبة من النوافذ.

تكررت أمامي رؤية خالي. أراه في كل مكان لا أتوقع رؤيته فيه يمشي وحيداً بدشداشة خفيفة بيضاء. يجرجر قدميه بنعال جلد ممسوح. ولأنني كنت سعيداً وحزيناً في آن لعودته إلى البصرة فقد كنت أقطع عليه اطراقته وأنا أرفع صوتي ليسمعني. يتوقف. يرمّش أجفانه كأنني أخرجته من قاع الظلمة إلى الضوء.

لن يحدّثني إلا بعد أن أسأله:

ـ شلونك خالي؟

يردّ عليّ متسائلاً هو الآخر:

ـ ها خالي؟

ثم يسألني عن أمي وأبي.

ما استغربت له حقاً أنه يسألني عن أحوالهما ولم يمرّ على رؤيته لهما سوى أيام قليلة. ولولا أنني كنت واثقاً من حضوره إلى مجلس العزاء وجلوسه إلى جانب أبي في السرادق الطويل يرشف الشاي ويستمع شارد الذهن إلى عبد الباسط ينغّم آيات الحشر لقلت مسكين خالي إنه ينسى.

لكن خالي لم يكن ينسى.

ولأنه لم يكن ينسى لم أحدّثه عن سعادتي بعودته وحزني.

ليل نهار كان يدور.

كلما أغمضت عيني رأيته.

يقطع وحشة الليل كما يقطع وحشة النهار.

أتصوّره يخرج من بيتهم في محلة أم الدجاج فيأخذ أحد طريقين: إما أن ينحرف إلى اليمين. يقطع زقاقاً تثقل هواءه وخمة الدجاج. وتزحم دكاكينه أقفاص البلاستك المتربة وماكنات الذبح والتنتيف. يرى الدجاج المذبوح يُغطّس في قدور كبيرة مليئة بالماء الساخن. بالدم الساخن والرؤوس ترميها أسنان الماكنة مثل اطلاقات حيّة. لحياتها معنى واهن. تفتح مناقيرها في رجاء أخير وتطبقها. تنقر الهواء نقرات مجهدة. ثم ينحرف إلى اليسار ليمشي باتجاه

الفتحة المؤدية إلى سوق الخضار. أو يكمل الزقاق فيجد نفسه في سوق السمك. يغطس في الزفرة التي تتكاثف. يُحسها تُثقل الهواء كلما توغل في السوق الذي يضيق مع احتشاد الأحواض نصف الممتلئة والبسطات بأسماكها وقد خبت التماعة جلود معظمها وذوت لحومها.

لا مفر من وخمة الدجاج أو زفرة السمك. من المناقير وهي تواصل في رأسه نقراتها. من الأفواه الحمر الدقيقة للأسماك الحية تنفتح وتنسد في مياه الأحواض.

يقطع بعدها شارع الكنيسة متوجهاً إلى الخندق أو يواصل سيره عبر الثلاثة أسواق: سوق الندافين وسوق الهرج وسوق الحبال ليمرّ على جامع المقام قبل أن يعبر الجسر مقابل تمثال أسد بابل لتبدأ عندها جولته على ضفة الشط. خطواته بطيئة. كما لو كان ينوء تحت ثقل لا يُرى. غير عابئ بالأمواج التي تتضارب خلفه وتتطاير مياهها على الضفة.

كل شئ في البصرة يبدأ عند الشط.

تلك حكمة المدن الساحلية.

كل شئ ينتهي عنده.

لم تكن بين خالي وأنا أتصوّره متمهلاً يمشي على الكورنيش وصورته المحفوظة في ألبوم العائلة أية صلة. **الصور تكذب**. ذلك ما قلته لنفسي في اللحظة التي رفعت الصورة فيها من الألبوم لألصقها في دفتر الصور. بحرص وتوجّس. بعيداً عن عيني أمي. ذلك ما قلته لنفسي في اللحظة التي

رأيته فيها أول مرّة. كان عائداً من الكويت. إحدى عوداته البعيدة المتباعدة. كنا نعيش وقتها ما يشبه العيد. خالي راح. خالي إجه. خالي نام. خالي گعد. خالي أكل. خالي شرب. خالي گال. خالي سكت. كل ذلك وخالي بعيد عنا. إنه يقيم كلما عاد في بيت خالي الكبير في العشار. في أحد أزقة أم الدجاج. تبدأ الأخوات بالتوافد فور وصول الخبر. تسحرهن رائحته ويغمرهن حضوره الأثير. سليمة تأتي من الجمهورية. وفطومة من الجنينة. وفوزية من الحيانية. وأمي منيرة. صغرى الأخوات. من المعقل. من أم الصبور حيث أقمنا في بداية السبعينيات. أو من الأبلّة حيث أقمنا في أواسطها. كنت أعلق بذيل عباءتها لأرى إن كان خالي ما يزال كما في الصورة. يلبس السدارة وقميص العسكر بأزراره النحاسية الكبيرة. أمي تقول انه تسرّح من الجيش من زمان. وهو يعمل اليوم مع شيوخ الكويت. لم أكن أعلم ماذا يعني أن يخلع سدارته ويستبدل قميصه الخاكي بدشداشة نصف عمر. يجمع أغراضه ويندسّ داخل باص خشب متوجّه إلى الكويت. ماذا يعني أن يطوي الرمال بعد الرمال ليعمل مع الشيوخ. هل يقعي مثل كلب الحراسة إلى جانب الموقد بانتظار صيحة الشيخ ليقفز كما في المسلسلات البدوية؟ دلّة القهوة بيد والفناجين بيد. يتمطق ويدقّ الفناجين على بعضها فيرمقه الشيخ شزراً ويعنّفه بصوت مكتوم:

ـ إركد. إركد يالصبي.

أمي تنهرني وتقول:

ـ عيب. خالك لا يعمل مع شيوخ البادية. خالك في الكويت.

أدخل غرفة جدتي وأرى صورة الإمام الكبيرة تحتها صورة جدتي بالأسود

والأبيض تُمسك بضريح الرضا. وأرى أمي فتاة صغيرة بضفيرتين تمسك ذيل عباءتها وأعرف أنها ليست أمي. كما أن الأخرى ليست جدتي. حينما أدخل الغرفة وأشمّ العطر الغريب أتأكد أن خالي لا يقعي مثل كلب الحراسة قرب الموقد. لا يحمل الدلّة ولا يدق الفناجين. أمي تدخل قبلي تنحني وتقبّل رأسه. ثم تأخذ يده وتبدأ بالبكاء. أعرف أنها ستبكي فتبكي. أسمع بكاءها وأرى روحها تفرفح مثل أرواح الأخوات الصغيرات في الغرفة الطويلة. الظليلة. الباردة. وأنا ألوذ بباب الخشب. أسمعه يقول:

ـ هله. هله منيرة.

ويترك يده بين يديها.

بعد أن تهدأ قليلاً وتلملم نفسها قربه ينظر باتجاه الباب ويسأل:

ـ مَنْ هذا الولد؟

ـ ابن منيرة الزغيّر.

صوت جدتي يبرق بسعادة نادرة. السعادة التي أراها تضيء ملامحها كلما تحدثت عن أحفادها. أسمعها ترد فالتصق بالباب وأشمّ رائحة الخشب.

المرة الوحيدة التي جاء فيها إلى منزلنا في إحدى زياراته إلى البصرة كانت في منتصف السبعينيات. كان بصحبته شاب إيراني. أجمل شاب إيراني رأته عيناي بشعره الأسود السرح وهو يغطي أعلى أذنيه وبشرته البيضاء وشاربه الحليق. كلما تذكّرته رأيته طويلاً بشكل غريب. سترته زرقاء مقلّمة. ياقتها عريضة كأنه أحد أفراد فرقة الإنشاد العراقية. صعد بسيارته المرسيدس السوداء على الرصيف. مرّ بها قرب النخلة العالية مقابل المنزل. انتظر قليلاً

قبل أن يوقف محرّكها. إلى جانبه يجلس خالي بدشداشة بيضاء وفي الكرسي الخلفي جلست زوجة الرجل. على الكنبة الخشب في غرفة الاستقبال جلس ومدّد رجليه. بجانبه جلس خالي قماش دشداشته يلمع في ضوء الغرفة كلما تحرّك ليتكئ على الكنبة أو يرفع إحدى يديه. أمامهما على المنضدة الصغيرة العارية وضع أبي كوبي الشربت. شربت البرتقال الذي أتذكر طعمه لزجاً شديد الحلاوة. وقد اندلق بعض منه في صينية الفافون المستديرة منحنية الحافة. كان أبي قد جلس على الكنبة المقابلة. بنظارته ذات الإطار البلاستك الأسود وشاربه المقلّم الخفيف مثل خيط الصوف. يرفع يده. يعدّل ياقة دشداشته الثخينة المكرمشة ويمسح وجهه. يداري تورّطه بالزيارة المفاجئة. كانت أمي تثير زوبعة في المنزل وهي تقود المرأة الإيرانية التي اندفعت إلى الداخل بجادرها ذي الزهور الصغيرة الصفراء مثل حبات الحمّص وهو يغطيها من الرأس إلى القدم. كأنها تعرف المنزل وتميّز بين غرفه. جلستْ في غرفة أمي شحيحة الضوء. على حافة سرير الحديد العالي ولم تخلع الجادر. لمّت أطرافه تحت ساقيها وقد انطلقت أمي تحدّثها عن كل شيء ابتداءً من أخيها الذي اختار العمل في الكويت مروراً بأخواتها واحدة واحدة وصولاً لنا نحن أبناءها الذين وقفنا خارج الغرفة. نستمع لحديثها ونرى حيرة المرأة التي لا تعرف الجُك من البُك. كان خالي قد أحضر معه جهاز تسجيل عريضاً ماركة توشيبا. فضي الحافة بسماعتين كبيرتين يحيطهما إطاران لامعان وعدداً من الأشرطة. لحظة نزل من السيارة كان يحمل الجهاز. يده اليمنى تُمسك حمالته وتنفتح أسفله كفه اليسرى كأنه يتقي بها سقوطاً وشيكاً. لا أدري مَنْ وضع شريطاً وقتها في الجهاز لينطلق صوت عبد الحليم بغنائه الذي لم ينقطع إلى اليوم في رأسي. كان الشاب الإيراني سبب زيارة خالي.

كانا معاً في إجازة. خالي يخطف رجله خلالها إلى البصرة والشاب إلى إيران عبر مفرق الشلامجة. كانت أوراق العبور تُنجز وقتها من المعقل. من دائرة الميناء. وقد مرّا ليصحبهما أبي إلى الدائرة. خرج أبي حافياً. وقف خارج الغرفة ونادى على أمي التي قطعت حديثها مع المرأة وجاءته بملابسه. ملابس عمال الميناء. عاد الشاب يقود سيارته السوداء إلى جانبه جلست زوجته وجلس أبي إلى جانب خالي في الكرسي الخلفي. ببطء أرجع الرجل السيارة. نزل الرصيف. وقبل أن تندفع مخلفة غيمة صغيرة من دخان خفيف الزرقة رأيت أبي ينظر باتجاهنا. عيناه ترمشان خلف زجاج نظارته وصوت عبد الحليم ما يزال يتردد متوجعاً في المنزل. كنت أتمنى أن تتأخر الأوراق فيعود خالي مع الرجل وزوجته. أن تظل المرأة في غرفة أمي تلمُّ جادرها تحت ساقيها وأن يواصل خالي حديثه عن العمل في الكويت. وأن أسمع الرجل يتحدّث فيردُّ خالي عليه ثم يترجم خشيته لأبي. يخشى أن تتأخر أوراق العبور. لكن أبي يطمئنهم بوجه باسم. كأن ميناء المعقل ملك يمينه. يُحزنني ذلك وأعود مرّة أخرى لأقف خارج غرفة أمي. أسمع حديثها وأرى المرأة تقلّب نظرها في سقف الغرفة قبل أن تُغمض عينيها وتميل برأسها. تلمس أمي فخذ المرأة لمسة خفيفة عارضة وهي تشرّق بحديثها وتغرّب. تفزّ المرأة وتنظر نحونا. عيناها مستغربتان كأنها نسيت في خطفة النوم السريعة وجه أمي وحكاياتها المتلاحقة.

كنت أتمنى لو يبقيان لأسأل الرجل عن مدينة مشهد حيث وقفت أمي بضفيرتيها وثوبها المخطط الطويل وقد بانت تحته مقدمة حذائها الروغان ذي

الفتحة الدائرية والسير الرفيع. تتهدل فوقه حافة جورابها الأبيض المكركش القصير. يدها تُمسك ذيل عباءة جدتي التي وضعت يدها مفتوحة الأصابع على شبّاك ضريح الرضا. سأسأله وأرجو خالي أن يترجم له سؤالي. يرفع رأسه لينظر نحوي. يبتسم قليلاً لحظة ينتبه لملامح الصبي القريبة من ملامح الخال ويقول:

ـ لماذا تسأل عن مشهد؟

ـ لأن الصور تكذب.

أقول.

ولأن أمي تحدّثنا عنها كلما ذهبنا إلى بيت خالي. تذكّرها الصورة فتتحدّث عن الضريح وعن السرداب وعن الإمام الذي كلما ضاقت الدنيا أمامها ناشدته ففتح الأبواب بيديه النورانيتين. كانت تنظر للصورة وتتحدث. كأنها تستمد من الصبيّة التي كانت القدرة على التذكر. فتتذكر. القدرة على القول. فتقول.

سأحدّثها عن الإمام بعد سنوات طويلة فتسكت قبل أن تسألني إن كان يزورني في المنام أنا الآخر. أقول لها بأنني أرى أحلاماً كثيرة برجال ونساء وحيوانات وأشجار وطيور. أحلام بأئمة أعرفهم من خطواتهم البطيئة كأنهم يسيرون في الهواء. أرى وجوههم الهادئة مع اقترابهم وهي تنوّر في العتمة وأعلم أن وراءهم ملائكة بأجنحة. أجسادهم شمعية بيضاء وأجنحتهم طويلة لا تشبه أجنحة الطيور. أجنحة شفافة معرّقة مثل أجنحة الزنابير.

أسمعه فيها وأراه. فتشهق وتفتح عينيها. فأحكي لها من جديد حكاية الحمّام. كيف أن الإمام سبق ذات يوم غلمانه إلى الحمّام. واضطجع للراحة. تحته البلاطة النظيفة الدافئة ومن حوله بخار الماء يضبب الرؤية. قبل أن يُغمض عينيه حرّكه أحد العامة وقال:

ـ أيها العبد قم فناولني الطاس.

قال للإمام أيها العبد فقام الإمام وناوله. وعلى إثر ذلك دخل من غلمان الإمام من ارتجّ الحمّام لهم. فدُهش الرجل وأخذه الخوف من عظيم ما فعل. فقال له الإمام:

ـ لا ذنب لك أيها الرجل. لا ذنب.

كان الإمام قد رفع يده وهو يحدّث الرجل. ليطمئن الرجل. يده السمراء التي جاءت بالطاس في بخار الحمّام هي نفسها اليد التي تدفع الأبواب فتفتحها.

من خلف ضباب النوم أرى خالي يمشي وحيداً. خطواته بطيئة. كما لو كان ينوء تحت ثقل لا يُرى. غير عابئ بأمواج الشط التي بدأت تتضارب فتتطاير مياهها على الضفة. أخفض صوتي وأنا أحدّثها عن الكلاب. خالي يمشي ومن حوله تندفع الكلاب. كلاب بملامح بشريّة. من أمامه ومن خلفه أرى كلاباً لاهثة. ألسنتها طويلة تتدلى من أفواهها. وأراه يواصل المشي كما لو كان لا يراها ولا يسمع هريرها. أمي التي لم أكن أظنها تسمع تدير

رأسها نحوي وتفتح عينيها. في عينيها أرى الماء وأرى الضباب واسعاً وكثيفاً فأنسى الكلاب وأنسى خالي وأسمع الموج.

من بين أسنانها يأتيني صوتها غاضباً لا يكاد يُسمع:

ـ فال الله ولا فالك.

الصوت الغاضب الخفيض كان صوتها. والرائحة رائحتها. لكن ملامحها تتبدّل وهي تقول. لا أعرف إن كانت قد رأت شيئاً مريباً فيما رأيت. شيئاً قاسياً أخافها فبقيت طول النهار لا تنظر نحوي. تتحرّك في المنزل كأنها لا تراني. أتكلّم معها فلا تردّ كما لو كانت لا تسمعني. نهار طويل أحسستني فيه مثل شبح في المنزل. لم يكن يهمني أن يراني الآخرون أو يحدثوني. كان يهمني أن تراني أمي وتحدّثني. في الظهيرة تتمدّد في مجرى هواء المبرّدة الرطب فأتمدد إلى جانبها وأستنشق رائحة الطبيخ. أمدّ يدي أتخلل شعرها وأطوّق رقبتها. فلا تدفع يدي كعادتها ولا تنهرني. تُغمض عينيها كما لو كانت لا تُحس بي وتتنفس بصوت مسموع فأبكي. أبكي من أجل أمي التي لا تراني. أمي التي تنزل في حفرة النوم العميقة المظلمة. تنزل وتتركني. رطوبة الهواء تثقل أنفاسي وجمع الكلاب يطرد النوم عني. سمعت شهقة عالية تكسر رتابة صوت المبردة وترمي بي إلى ظلام البئر وما أن فتحت عيني حتى رأيت أمي تنظر باتجاهي. عيناها حمراوان كما لو كانت تبكي في منامها.

قالت:

ـ انهض.

ولما نهضت مستنداً إلى يديّ أضافت:

ـ سنذهب إلى العشار.

فذهبنا في إحدى ظهيرات صيف البصرة اللاهب. تمشي أمامي وأجرجر قدميّ وراءها.

اخترقنا سوق السمك لندخل الزقاق. كان يشطر الزقاق جدول صغير. لون الماء الداكن ووغف الصابون المندفع عكس اتجاهنا يبطئ من سيري. أتردد قليلاً قبل أن أقرر على أي الجانبين أمشي. أمي تندفع أمامي بخطواتها العجولة. تندفع ثم تلتفت كأنها تذكرتني. تلتفت ولا تقول. فأسرع بساقين مفتوحتين. أقفز وقد فتحتُ رجليَّ وتركتُ الجدول يجري بينهما. في كل قفزة أحسّني بعضاً من الزقاق. نفحة من هوائه. دفقة في مياه جدوله العطن. بيد مقبوضة تدفع أمي الباب وتدخل. كلما استعدت المشهد أستغرب لليد المضمومة الأصابع. للباب المفتوح. لأمي وهي تجلس على أرض المنزل قريباً من العتبة بانتظار جدتي. جدتي التي تخرج من ظلمة الغرفة. بقامتها القصيرة وانحنائها القليل. كأنها التقطت أنفاس أمي وسمعت وجيب مخاوفها فخرجت من الظلمة. كنت أتمنى أن أندفع نحوها. أصيح جدتي واندفع. أندفع وأصيح فأراها تفتح يديها المعروقتين وأحسُّها تضمني وأتنفس رائحة البخور التي ضمخت ثيابها. كنت أتمنى لكنني بقيت واقفاً خلف أمي. محتمياً بها. يدي تُمسك طرف عباءتها والأخرى على حافة الباب. فأحسستني جزءاً منه. جزءاً محكماً صقيلاً من خشبه العتيق. اقتربت جدتي وطأطأت رأسها. كان وجهها قريباً من وجه أمي. وجهها المنقّر بنقرات طائر الجدري. كان الوجهان غريبين عن بعضهما. وجه أمي ببياضه الخفيف وأنفه الأقنى ووجه

جدتي بأنفه القصير وسمرته الترابية. طأطأت أمي رأسها. نقلت عينيها بعيداً عن عيني جدتي المتسائلتين.

قالت:

ـ إنه يرى خاله في كل مرّة يحلم فيها. كأن العالم لم يعد فيه غير خاله. يراه يمشي ومن حوله الكلاب.

صوتها ينخفض وهي تواصل حكاية الحلم بتفاصيله الدقيقة كأنه حلمها. أرى خالي في حكايتها يواصل المشي كما لو كان لا يرى الكلاب ولا يسمع هريرها وأحسُّ شيئاً دقيقاً معتماً يذوب في حكايتها مثل قطرة حبر ملوثاً الحلم. أسحب يديَّ من خشب الباب. وقبل أن أتركهما وأخطو إلى الداخل أسمع جدتي تقول:

ـ إنه فأل سيء.

أتصورها وقد رفعت رأسها وحدّقت مباشرة إلى عيني أمي. كعادتها كلما أثارها أحد. تعضُّ على شفتها السفلى وتشعُّ عيناها بالتماعة مخيفة. أدور من خلفهما متأكداً أن أياً منهما لن تنتبه إليّ. كان خالي يسحرهما وهو يدور في الحلم الذي لم يعد حلمي. أدخل الغرفة ولا أشمُّ عطره الغريب. أسمع صوته بعيداً يرحب بي في عتمة الغرفة.

ـ هله هله ابن منيرة.

ثم يسألني إن جئت وحدي. أستغرب لسؤاله فأنا أسمع من مكاني داخل الغرفة صوت أمي كلما ارتفع وهي تحدّث جدتي التي عادت لصمتها. أتقدّم نحوه وأمسك يده. يده الموضوعة على فخذه. يده التي لم تحمل الدلة ولم تدقّ

الفناجين. أتمنى وقتها لو كان ياسين يراني أمسك يد خالي في عتمة الغرفة. عتمة الغرفة وقد أضاءتها دشداشته بقماشتها الرقيقة البيضاء.

لم يكن ياسين يسكن لصقنا في بيوت المعقل. كان يفصل بيننا بيتان أو ثلاثة لم يمنعا بسياجي سطحيهما أن نحلّق إلى بعضنا مثل طائرين. طائران أهوجان طليقان يحلقان في سماء النهار. يتسلق أي منا سياج سطح بيتهم ثم يندفع خفيفاً بذراعين مفتوحتين. بجناحين مفرودين لا يشبهان أجنحة الزنابير يحلّق على حافة الأسيجة محاذراً أن يسقط ظله داخل أي بيت. عندئذ ستعلو شتيمة تلعن الوالدين اللذين يعطيان الخبز ولا يعطيان التربية. شتيمة تتعالى متكررة من أي بيت كان مع خطفة الظل على الجدار حتى تصوّرت التربية تُعطى مع الخبز. صحن ساخن بحبات ليّنة بيضاء مصفرّة وقطعتي لحم رقيقتين. لون مرقها مائل إلى البرتقالي الخفيف.

أقول محتجاً:

ـ إنها مرقة فاصوليا.

تحرّك أمي الصحن وتقول:

ـ إنها مرقة تربية. تذوّقها ستجدها تختلف عن طعم الفاصوليا.

أضع قليلاً منها على حافة الملعقة. أشمّها فلا أجد لها رائحة ثم أتذوقها بطرف لساني كما أتذوّق الدواء. أذوّبها في فمي فأجدها مُرّة. أبصقها. أرمي الملعقة وأهرب.

ـ ستظل بلا تربية.

تصيح أمي.

ـ ستلاحقك الشتائم طول عمرك.

أقفز على درجات سُلّمنا الخشب. أصعد على سياج السطح. أفتح جناحي. أحلّق وأحط على سطح بيت ياسين ومن فوق الثياب المعلقة على الحبل ثوباً فوق ثوب أرمي حجارتين صغيرتين على صفيح سقف الممر. يفصل بين كل منهما وقت قصير. وحالما تنقطع طقطقة الحَجَرة الثانية يكون ياسين أمامي. أسحب من تحت قميص بجامتي المقلّم دفتر الصور بغلافه الكارتوني وقد طُبع جدول الضرب على غلافه الخلفي فيما طُبعت خارطة العراق باهتة اللون على غلافه الأمامي. لم تكن صورة صدام حسين بوجهه المدوّر الشاب وهو يبتسم ابتسامته العريضة الآملة ببدلته الأنيقة الزرقاء ورباطه المقلّم الثخين قد حطّت على أغلفة الدفاتر المدرسية بعد. أتصفحه صفحة صفحة كأنني أستعرض الصفحات للمرة الأولى أمام عيني ياسين.

يسألني:

ـ صورة جديدة؟

فأقول:

ـ صورة نادرة على سرير المرض.

أفتح الدفتر مقلّباً أوراقه وقد ألصقت على كل منها صورة لعبد الحليم. بينها صورة خالي الصغيرة بسدارته العسكرية ووجهه المائل الصبوح. صور جرائد ومجلات. أمرُّ على بطاقة بريد كان عبد الحليم فيها جالساً على كرسي وقد غادر الشباب منذ وقت. صور صقيلة ملونة وأخرى خشنة بالأسود والأبيض. بعضها اقتطعتها مع التعليق. وبعضها من دون تعليق. تأملتها

طويلاً قبل أن أدوّن تحتها تعليقاً بالقلم الماجك يتناسب مع التعليقات الأصلية.

قبلة الربيع.

العندليب الأسمر في غابة الغروب.

نغم وشجن.

كان عبد الحليم يتمدّد على السرير في الصورة الجديدة وقد غطى جسده لحافٌ لّماع بنجوم دقيقة. نقاط صغيرة معتمة أحببت أن تكون نجوماً. تحتها طُبعت جملة سرير المرض كما قلتها لياسين. كان وجهه قد ازداد شحوباً. وجه عبد الحليم لا وجه ياسين. وغارت عيناه في حفرتين عميقتين تحيطهما هالتان من عتمة المرض. فيما ظلَّ شعره الطويل مصففاً بعناية. مرمياً إلى الجانب.

ـ الصور تكذب.

قلت بصوت خفيض وأنا أغلق الدفتر.

ـ هل رأيت شعره كيف يبدو مصففاً؟

كانت صور عبد الحليم شغلنا الشاغل قبل أن تحلَّ علينا صور يوسف حنش مثل لعنة آسرة.

ثمة نوع من الأصدقاء يظل محافظاً على حضوره الواهن في حياة الجماعة. مثل خيط لا يكاد يُرى. مثل بطانة ستارة. شفيفة مخرّمة. لا تمنع ضوءاً ولا تصدّ ريحاً. بانتظار لحظة ما تنقله إلى موقع جديد. كان يوسف حنش من هذا النوع. إنه بطانة الجماعة بحضوره المخرّم. وخيطها الرفيع. ربما ما قرّبه إلينا أول مرّة هو صوته الغريب. صوته الذي يعلو بنبرة عميقة واضحة

مثل أصوات مدرّسي التربية الدينية. لكنه سريعاً ما ينكسر بنعومة مفاجئة تضطره لأن يبتلع كلماته. يصمت قليلاً ويفرك مقدمة حذائه على الأرض كأنه ينشغل بسحق عقب سيجارة لا يراه غيره. يسحب حذاءه إلى الخلف ويرمّش أجفانه ويجرّب أن يقول. لكنه يظل محافظاً على صمته. محتمياً من عيون التلاميذ. خجلاً من البنت التي تنام في حنجرته. في نهاية الدرس ومن بين ضجيج الأولاد ناداه ياسين:

ـ حنش.

لم يكن في متوسطة الرشيد حنش غيره.

التفت سريعاً فتحركت ممحاته المعلّقة بخيط على رقبته مثل جرس الماعز وعلى شفتيه شبح ابتسامة. ربما لأنها المرّة الأولى التي يناديه فيها أحد باسم أبيه. اسم أبيه الذي لا معنى له. فما معنى أن يُسمّى رجل باسم حية عظيمة سوداء ليست من ذوات السموم. فتح ياسين معجم الصحّاح بطبعته المدرسيّة المجلّدة ووضع خطاً بقلم الرصاص تحت التعريف. خطاً متعرّجاً مثل أثر حية على الورقة. لم يكن صوت يوسف هو ما وطّد حضوره بيننا. كما لم يكن اسم أبيه أو ممحاته المثقوبة المعلّقة بخيط على رقبته. كانت مسروقاته من جنّة أخيه هي ما غيّرت موقعه في حياتنا. رفعته بأصابع سحريّة من مكانه في آخر الصفوف حيث بالكاد تبدو لمّةُ شعره لتضعه في قلب الصورة. بمواجهة الكاميرا. مكان أقرب إلى الحلم.

لم يكن خالي يرقد في الظلمة الرطبة منتظراً خطواتي. كنت أتقدّم مأخوذاً بالصوت يملأ رأسي ويتردّد في الغرفة. أنقل خطواتي متنفساً هواء الغرفة

الرطب وأسمعه يحدّثني. وجهه يُضيء ورائحته تفوح. رائحته التي لا تشبه رائحة رجل سواه. فتح الشُبّاك وأخذنا ننظر لأمي وجدتي. جدتي التي أتعبها الوقوف فجلست متكئة إلى الحائط. تنود برأسها.

عيناها مغمضتان وفمها مفتوح.
عيناها مفتوحتان وفمها مطبق بإصرار.
عيناها شقان مطبقان مفتوحان.
توقفت عن الحركة والتفتت نحو أمي.
الوجهان متواجهان وعينا جدتي مفتوحتان.

أسند يوسف دراجة أخيه الهوائية الصفراء إلى حافة الجسر وسبقنا متقافزاً إلى الضفة. كان يفتح رجليه مع كل قفزة متجنباً الأشواك. أمسك ياسين بيدي واندفعنا نحوه. كانت قدماي تتخبطان فأحسُّ الأشواك تتكسر تحت حذائي. رفع يوسف ذيل قميصه وسحب بيدين خفيفتين مجلة أجنبية من خلف حزامه. لم نكن قد رأينا جسداً نسوياً عارياً حتى تلك اللحظة. كانت أجساد النسوة تقفز من شاشة سينما نادي الميناء الرياضي إلى رؤوسنا. أجساد عامرة تلمع تحت بريق الشهوة. تتأوه تحت سياطها. أجساد الراقصات في كثافة دخان المراقص. أجساد البطلات على الشواطئ. بالأبيض والأسود أو بالألوان يحرّكن دفق دمائنا كلما وصل الفلم إلى لحظته الذهبية. اللحظة

التي تلبط البطلة فيها مثل سمكة بين يدي البطل. اللحظة التي لم نكن نراها أبداً. فحالما تتلاقى الشفاه وتبدأ الأجساد بالتلوي ينقطع المشهد. كأن فماً جباراً يبتلع اللقطة بأبطالها وبطلاتها ويتركنا نتقلّب على الجمر. كان يوسف يتصفح أوراق مجلته. يقلّب طبقات عوالمه. طبقة بعد طبقة تنفتح العوالم. وتضيء المشاهد السينمائية المحذوفة أمام أعيننا دفعة واحدة. ساطعة بأجسادها البضّة. وجلودها اللامعة. وزغبها الناعم المبتل. أقسى من قدرتنا على التخيل وأمضى من أحلامنا. أجساد تُصيبنا بالدوار. وتحشرج الكلام في حناجرنا.

كانت الصور تعيش في رأسي حيةً. نَضرةً. لها رائحة وطعم. لها ملمسٌ دافئ غريب. لا تستقر نساؤها على حال. إنهن يتقلّبن في ليل وفي نهار. أفتح المجلة وقد استأجرتها من يوسف يوماً أو يومين فأرى النساء أنفسهن الشقراء الرشيقة والسمراء الممتلئة. راكبة الدراجة الناريّة اللامعة والمستلقية على الرمال. لكنهن يتخذن وضعيات مختلفة. أغلق المجلة ثم أفتحها على الفور فأتأكد أنهن يعبثن بي كما يعبث بي البحر الذي يتبدّل لونه خلفهن. والرمال التي يستلقين فوقها مسترخيات.

الصور تكذب.

والمجلات تكذب.

والأجساد تكذب.

أمسك عضوي وأضربه على الحائط بعد أن باغتني فأطلق قذيفته اللزجة

ولوّث المجلة.

كان سعود. أكبر أخوة يوسف. يعمل ميكانيكاً على إحدى ساحبات ميناء المعقل. بقامته القصيرة الممتلئة وكتفيه العريضتين مثل أكتاف الربّاعين وشعره الكثيف الواقف كأنه زُرع على جلدة رأسه شعرةً شعرة. لم يكن يعود آخر النهار بالدهن وحده وقد لوّث يديه وطمر لون بدلته. ولا برائحة عرقه الفائحة. كان يُخبئ تحت البدلة. على الجلد مباشرة. ما يأخذه من البحّارة الهنود والباكستانيين من مجلات مقابل أرباع العرق التي يخبؤها في جيوب بدلته الواسعة بانتظار اللحظة التي تدخل فيها إحدى السفن إلى الميناء. مع ضجيج المكائن واقتراب السفن يتسارع تلويح البحّارة وهم ينحنون على المساند. ويتعالى صياحهم بفصاحة مضحكة وتنغيم:

ـ زحلاوي.. زحلاوي.

بعد حوالي خمس سنوات. مع أول قذيفة تُطلقها إيران على ميناء المعقل سيموت سعود ولما يكن قد تزوّج بعد أو أكمل الثلاثين. ستتشظى قامته القصيرة. وقد نزلت القذيفة عليه مباشرة كأنها قذيفته. ولا يُستدل على جثته إلا من فروة رأسه التي عُثر عليها ملتصقةً على الجدار.

انطلق صوت يوسف مثل أصوات معلمي التربية الدينية وقد هالته رؤية

أكثر من صفحة من صفحات المجلة مكرمشة حالت ألوانها بعد أن حاولت مسح القذيفة عنها بالماء. عرفت أنها لن تعود إلى أول حالها. وأنني لن أتمكن من تأجير مجلة مرة أخرى فسخّنت المكواة ومررتها حذراً على الصفحات. لم تكن تبدو على أجساد النسوة المبللات طيةٌ واحدة. لكنني واصلت الكيَّ حتى انتبهت لألوان الصور التي أخذت تبهت كأنما كنت أحثو عليها التراب. سكت يوسف وهو يحدّق مشمئزاً. إنه يتصورني وقد فعلتها على الصور مباشرة. بعد أن مررت عضوي على الأجساد. لمستها جسداً بعد آخر. وتوقفت عند مغاورها اللدنة. حاولت أن أفهمه بأن القذيفة انطلقت رغماً عني. وأنني كنت أفكر بالصور وهي تكذب والأجساد وهي تتبدل. تغيّر وضعياتها. لا تشبه أنفسها. ضحك ياسين. من بلاهة ضحكته عرفت بأنه يفكر مثلي بالأيام التي ستمرُّ من دون أن يُسمح لنا فيها بتأجير مجلة أو رؤية صورة. بصوت البنت التي تنام في حنجرته أسدل يوسف الستار على جنة الصور. وأطفأ الضوء عن مشاهد اللحظات الذهبية.

ـ لن تروا مجلة مرة أخرى.

قالت البنت.

حدجنا بنظرة معلّم التربية الدينية من دون أن يعبأ كعادته بصوته وهو يخونه. وضع المجلة تحت حزامه. على الجلد مباشرة. وأنزل القميص. صعد الضفة متحاشياً الأشواك ثم ركب الدرّاجة وانطلق بعيداً.

بقيت مع ياسين. ننظر إلى الجهة التي غاب فيها. بانتظار اللحظة التي

يغيّر رأيه فيها ويعود. ولما طال انتظارنا وضع ياسين كفيه مكورتين على فمه وصاح بأعلى صوته:

ـ حنش.

بقي عبد الحليم يدور في سماء المعقل. يحلّق مثل طيف في سماء أحلامنا. يرفع يديه وقد باعد ما بين أصابعه. أصابعه الطويلة الغائرة في دخان الكمانات الأبيض الشفيف وهي تخفض من نشيج أوتارها. تمنح الإيقاع مساحة. تمنح نقراته فضاء يتسع مع اليدين المرفوعتين بأصابعهما الطويلة الناحلة. تتخللان اللحن بحركتهما القوسية كأنهما تلوّحان في ضباب. قبل أن تنكسر صيحة الناي على قماشة الأصوات. حيث يهيم كل شيء في اللحظة الدقيقة الفاصلة. اللحظة التي تُضم الأصابع فيها وتتنزل اليدان مكملة أقواس حركتهما ثم يلتفت الطيف. يقترب من لاقطة الصوت. يرفع رأسه وينظر بعينين أعياهما المرض. ينظر إلى جمهور الصالة. ينظر إلى الجدران العالية. ينظر إلى ملعب الميناء الواسع المفتوح أمامه. أعرف أنه لن يغني. وأن الفرقة الماسية وحدها ستحكي حكاية الليلة.

قال ياسين:

ـ إنها قارئة الفنجان.

أعلم أنه لا يستدل على الأغنية من مفتتحها. فقد ارتدى عبد الحليم ليلتها

بدلته اللامعة ذات النجوم الدقيقة والياقة العريضة الداكنة.

ـ إنها هدية الملك.

قال.

لكنه لن يغنّي

إنه الطيف يأتينا كل مرّة في شكل وفي حال.

منذ اليوم الذي وصل فيه إلى مطار المعقل عام 1965. ظل عبد الحليم محلّقاً في سماء المدينة كأنه ما يزال يسترخي على كرسي طائرته. كلما رأينا طائرة في ليل أو نهار فكّرنا به وقد نزل قبل الآخرين. رآه أفراد الفرقة الماسية من نوافذ الطائرة ينزل متمهلاً على السلّم القصير مرتدياً نظارة شمسية. شعره الطويل مصفف باعتناء. على ذراعه معطفه الأسود الذي لم يلبسه طوال زيارته. يتجه لسيارة تشريفات شركة الموانئ التي كانت تنتظره قريباً من السلّم. ثم عادوا للانشغال بحقائب آلاتهم الصغيرة وقد حملوها معهم داخل الطائرة. إنهم يعرفون موعده. أينما حل ثمة موعد ينتظره. موعد ثابت لا يتغير. يسبقه إلى كل مكان يقصده. يناديه ويلوّح له. فور وصوله إلى فندق شط العرب القريب من المطار طلب طباخ الفندق ودكتوراً وممرضاً شاطراً. أكّد على موظف الاستقبال الذي بدا سعيداً وهو يُمسك. غير مصدق. جواز سفره:

ـ عايزو شاطر وحياتك.

كان كيورك أبو غازي قد أنهى عمله في مستشفى الموانئ. لم تكن ردهة

الباطنية للرجال كثيرة الحالات هذا اليوم. مرضى قليلون على أسرّة متفرقة. كأنهم يقضون رحلة استجمام بدشاديش المستشفى النظيفة المخططة قصيرة الأكمام. لكنه كان كعادته. يدخل في وقت ويخرج في وقت. بقامته المتوسطة وجسده الممتلئ. يخطو إلى الردهة مسبوقاً برائحة كولونيا الحلاقة. رائحة ريفدور تشعُّ حال دخوله الردهة. في الوقت الذي وصلت فيه سيارة تشريفات شركة الموانئ إلى المستشفى كان قد أنهى عمله وخرج متوجهاً إلى منزله في منطقة الخمسين دار. لم يتناول شيئاً غير كوب قهوة يُحبه ويحافظ عليه في مثل هذا الوقت من أوائل ليل الخريف. شربه متمهلاً وهو يستمع من الشباك المفتوح لراديو المطبخ. بدّل ثيابه وخرج متوجهاً على قدميه إلى نادي الأرمن القريب. قبله بقليل كان بدروس أبو أوغيناك قد وصل. كان رئيس مضمدين في مستشفى الموانئ هو الآخر. نحيفاً. لهجته واضحة ونطقه سليم خلافاً لأرمن البصرة. هذا إذا ردَّ على حديثك أو تواصل معك فهو في واحدة من سمات انعزاليته قليل الكلام. وهي السمة التي كانت تطحن أهل المعقل المعروفين بألسنتهم الطلقة وتبعدهم بعض الشيء عنه. اعتادا الحضور إلى النادي ومغادرته قبل أن يتوافد الآخرون. إنهما يُكملان نهار عملهما في المستشفى بنقطة لقاء أخيرة في نادي الأرمن. مناضد دائرية بشراشف ملوّنة وكراسي خشب. قطيفتها الرمانيّة معرّقة بأغصان خضر ملتفة مثل أفاع دقيقة متشابكة بلا رؤوس. كان المرور في شارع اجنادين في الطريق إلى النادي بهجة بالنسبة لهما. بهجة يحرصان على تذوّقها كل يوم. أما الجلسة فهي نغمة أخيرة تكتمل معها ساعات اليوم. تتهادى وتستقر. في الوقت الذي يغيب فيه أحدهما. يمنعه سبب ما عن المجيء. كانا معاً يُحسان بأن يومهما غير مدوزن.

بهجته حائلة الطعم ونغماته معتلة. من بعيد رأى الحاج حميد بزيّه المميّز. إنه الوحيد من بين عمال شركة الموانئ وموظفيها الذي ما يزال يتمتع بامتيازه الشخصي الممنوح له بكتاب رسمي موقّع من قبل مزهر الشاوي مدير عام شركة الموانئ العراقية شخصياً. امتياز أن يلبس زيّه الشعبي في أوقات الدوام الرسمية. الحاج حميد. بدوره. عرف كيورك من بعيد. من مشيته الهادئة وقامته المتوسطة. عندما أصبحا قريبين من بعضهما سلّم كل منهما على الآخر وواصلا طريقيهما. لو نظرنا عن قرب لوجه كيورك أبو غازي في اللحظة التي أصبح الحاج خلفه لرأينا ظل ابتسامة يلوح على شفتيه. إنه يتذكّر مثل كل أهالي المعقل إيطالية رأس السنة التي نزلت تتهادى عارية من سفينتها إلى رصيف الميناء. يتصوّر عمال الميناء يتراكضون فارّين من أمامها والحاج وحده يتقدم نحوها. الايطالية العارية أصبحت امتيازاً آخر للحاج. امتيازه الأقوى من زيّه الشعبي الذي يلبسه بقوة كتاب رسمي.

في الوقت الذي جلس فيه كيورك إلى الطاولة أمام بدروس أبو أوغيناك دخل موظف إعلام الشركة. سلّم على عجل وقال:

ـ وينك أبو غازي.. عبد الحليم حافظ ينتظرك.

من راديو المطبخ سمع بوصول عبد الحليم. في الوقت الذي كان يشرب قهوته. وربما فكّر أن يصطحب العائلة ويذهب لحفلته في ملعب نادي الميناء. لكن لم يخطر في باله مطلقاً أن عبد الحليم كان قادماً من القاهرة من أجله. متحملاً أعباء المسافة البعيدة.

ـ نعم؟

سأل مستغرباً.

ابتسم الموظف وهو يقول:
ـ فور وصوله إلى الفندق طلب مضمداً شاطراً.

بعد عودته في حوالي التاسعة مساءً سألته أم غازي إن كان قد رأى عبد الحليم. حدّثها مخطوف البال عنه. عن استقباله له في غرفته كما لوكانا صديقين. ببجامته البيضاء اللامعة رقيقة القماش. لم يقل لها شيئاً عن الأدوية الكثيرة على المنضدة إلى جانب السرير. سيراها بعد أكثر من عشر سنوات كما هي على منضدة شبيهة في صوره المنشورة مع خبر رحيله. سيحدّث أصدقاءه عن جسد المطرب الناحل الذي لم يجد فيه مكاناً مناسباً لزرق الإبرة. حديثاً يظلُّ في ذاكرة المعقل. كأنه ظل الطائرة التي تدور في سمائها. ظل الطيف المحلّق في سماء أحلامنا.

أكثر من إيطالية تتهادى في حكايات أحلامنا.
يختصرن البحار ويعبرن القارات.
من قارة إلى أخرى يشعّ جمالهن.
ومن حكاية إلى حكاية.

إنها إيطالية أعياد رأس السنة وقد هزّت سكينة الرصيف. هشّمت زجاج أيام المعقل وهي تتهادى عارية على سلم الباخرة. تنزل من (فينيسيا) الراسية على رصيف الميناء. جسدها الأبيض الفتي ينوّر في صباح الأول من كانون

الثاني 1961. عقد جديد في حياة المعقل يُفتتح بجسد إيطالية عارية. كانت السفن الأجنبية تعيش ليلة عيد الميلاد بكل فتنتها. حتى إذا انتصف الليل أطلقت صافراتها عالية لتبدأ أوقات مرح تُسمع ضجتها في آخر المعقل. في ظل عيد الميلاد كانت شركة الموانئ تبيح للسفن الأجنبية الراسية على الرصيف كل شيء. يعيش ميناء المعقل معها ليلة من ألف ليلة. موسيقى وصيحات وانفجار قناني وفرقعة ألعاب نارية. صحون تتطاير من النوافذ وبحّارة يرقصون على السطوح. أضواء عالية وبالونات ملوّنة وصافرات وأعلام. رجال ونساء يُحيون كرنفال الميلاد حتى الصباح. في الصباح بعد أن هدأ كلُّ شيء نزلت الإيطالية. رآها حارس الرصيف غير مصدق. جسد من بلور ناصع. جسد من حرير يتهادى على سُلّم الباخرة.

ـ إنها تمسك قنينة ويسكي فارغة.

ذلك ما قاله في اتصاله الهاتفي مع المديرية وهو يحدّق نحوها. رآها تُكمل نزولها على الرصيف. شعرها يهفهف مع حركتها الخفيفة. وعمّال الرصيف يتراكضون من أمامها. لم يكن أحد منهم يقاوم بريق البلور العاري. عشرات العمّال يركضون كأن قنبلة انفجرت على الرصيف.

ـ لا تدعوها تخرج من الرصيف.

سيقول مزهر الشاوي وهو يستمع لمعاونه عبر الهاتف يحدّثه عن الإيطالية السكرى وعمال الرصيف. كان يُحسُّ انفعال المعاون المكتوم يصله عبر صوته المرتفع بجمله القصيرة المتقطّعة وهو يفكر بما يمكن أن يحدث لو خرجت إلى الشوارع. الإيطالية اللعينة تدور عارية في شوارع المعقل. حلو. إنها هدية عيد الميلاد. في لمحة خاطفة ومضت في ذهنه صورة الحاج حميد فقال:

ـ ابحثوا عن حجي حميد البيضاني. وحده من يخلصنا من هذه المشكلة.

أغلق التلفون وهو يردد مع نفسه:

ـ حلو!

كان يرى الإيطالية تنوّر أمامه بفتنة جسدها الفتي.

لم تمر سوى دقائق حتى توقفت إحدى سيارات الشركة أمام بوابة الرصيف. نزل منها الحاج حميد بدشداشته البيضاء رقيقة القماش وعباءته وشماغه المنقّط تحت عقال رفيع مضفور. بخطوات سريعة دخل إلى الرصيف متوجهاً للإيطالية التي وقفت قريباً من البوابة. كانت وحدها تغنّي وتدور مثل راقصة باليه وما زالت القنينة الفارغة بيدها. اقترب منها بحذر كأنه يخشى أن يقطع عليها رقصتها. خلع عباءته ووضعها على جسدها. أمسك يدها مثل طفل ثم سار بها بهدوء إلى الباخرة وهي تتطوّح في مشيتها. تدفع رأسها إلى الخلف وتنظر له بعينين نصف مغمضتين. أصعدها السلم وكانت ما تزال تغني.

سيحكي أهل المعقل عن الإيطالية التي نزلت مثل طيف على أرض الرصيف. عن عباءة الحاج التي لا مست الحرير. يؤلفون القصص عنها وهم يستعيدون خطواتها الخفيفة مع أعياد الميلاد. يرونها مع بداية كل عام تنوّر على سلالم السفن. كل سفينة ـ مهما كانت جنسيتها ـ تخبئ في حكاياتهم ايطالية عارية. لم يتحدثوا أبداً عن هروبهم من أمامها. ما فرّوا منه في الواقع يحاولون استعادته عبر الطرائف والقصص. من بين ما سيروى طويلاً حكاية

طريفة تجمع الإيطالية والحاج حميد البيضاني والزعيم عبد الكريم قاسم. على عادة العراقيين في ذلك الوقت وهم يحشرون الزعيم في كل صغيرة وكبيرة من شؤون حياتهم. خيط من متعة لاهية يجمع الثلاثة في حكاية واحدة. يوحّدهم في سؤال ظل يتنقل من راوٍ إلى آخر. في اليوم الذي وصل فيه الزعيم إلى البصرة كان أبناء المعقل جميعاً قد خرجوا إلى الشوارع لتحيته والاحتفال برؤيته. قيل أن الزعيم عندما رأى الحاج حميد يقف بزيّه الشعبي بين عمال الميناء ببدلاتهم الزرق أوقف السيارة. أنزل زجاج نافذتها ونادى الحاج الذي توجّه نحوه راكضاً غير مصدق أن الزعيم يناديه باسمه. فتح الرجال المتزاحمون حول السيارة مجالاً للحاج الذي وضع يده على عقاله وانحنى ليسمع الزعيم وقد همس في أذنه شيئاً.

ـ هل تعرف ماذا قال الزعيم؟

سأله بصوت لا يكاد يسمع إن كانت الإيطالية شعراء كما يقولون!

يوماً بعد آخر كنا نجمّع ما يمكن من يومياتنا من أجل أمل يتحرّك في رؤوسنا مثل رقاص الساعة. رقاص بذراع خشب داكن صقيل وصحن من فضة لامعة. مع كل حركة يرتسم عليه وجه يوسف حنش بانفعاله الذي لا يمكن البتُّ فيه. انفعال البنت الصغيرة وقد ارتسم واضحاً على الصحن.

ـ هل رأيته؟

ـ بل هو انفعال معلّم التربية الدينية. أنا متأكد من ذلك.

وعلى الرغم من ارتسام الوجهين على الصحن. وجه بعد آخر. وهما

يغيّبان وجه يوسف. يمحوان ملامحه. ظل ثمة أمل صامت يدفعنا لانتظار اللحظة التي تحطُّ المجلات فيها. من جديد. على أيدينا.

تحت ضغط الأمل بدّلنا بعض عاداتنا مثل الطريق إلى المدرسة. منذ اللحظة التي اتخذ يوسف فيها قراره لم يعد طريقنا مستقيماً. أصبح ملتفاً. أطول من ذي قبل. نخترق سوق المعقل أول النهار ثم نعبر جسر الخشب الصغير. نخرج من رائحة لندخل في أخرى ثم نستدير يميناً لا لشيء غير أن نصادف يوسف لعلّه يصحبنا إلى المدرسة. وهكذا أسقطنا أول قاعدة رياضية علقت بأذهاننا. فلم تعد المستقيمات أقصر الطرق. أقصر الطرق وأكثرها روعة بالنسبة لنا ما يؤدي إلى عودة المجلات. لكننا لم نحظ بيوسف أمام منزلهم أو خلال الطريق. كنا نرى أخاه الأصغر. صفاء. بشعره السرح ووجهه الهزيل. جلده الأبيض مائل إلى الصفرة. ينظر إلينا من شبّاك الغرفة المطلّ على الشارع بعينين زاد المرض من سعتهما.

يقول بصوت واهن:

ـ راح يوسف يركض إلى المدرسة.

ثم يسألنا مستغرباً لجنون أبناء المدارس:

ـ هل ستركضان للحاق به؟

كان يوسف يركض في الطريق إلى المدرسة. يركض في الطريق إلى النهر.

في الطريق إلى المياه الممتدة خلف نساء الصور. وكنا نركض خلفه مثقلين. نعلم أن خطواتنا مهما تسارعت لن تلحق به. قدماه خفيفتان تلتهمان الطرق الرملية النظيفة وتطيران عالياً في سماء الصور. وأقدامنا ثقيلة. قدمان من ريش وأقدام من حجارة. أرفع رأسي وأراه يحلّق. قدماه تلعبان في الهواء. أمدُّ سبابتي وأصيح:

ـ انظر إنه هناك.

يرفع ياسين رأسه وينظر. يشير بإصبعه هو الآخر وينخرط في البكاء.

مهما بكّرنا في الخروج كنا نرى يوسف. حال وصولنا إلى المدرسة. متكئاً على الجدار. حقيبته بين قدميه. عيناه على حقيبته. يحسُّ بوصولنا فيرفع رأسه وينظر بعيداً.

من بين العادات التي لم نتنازل عنها. على الرغم من طنين الأمل. أمل عدول يوسف عن قراره. عادة الذهاب إلى سوق الجمعة. إنه العيد الذي يتكرّر كل أسبوع. عيد من دخان وطيور وعاديّات. عيد المعروضات التي لا شكل لها ولا عدّ ولا لون. بسطات على امتداد شوارع البصرة القديمة. تستقيم باستقامتها و تلتفُّ بالتفافها. بسطات تتجاور فيها أشياء لا يجمع بينها جامع في غير سوق الجمعة: صور باهتة محزّزة ذبلت ألوانها معروضة على خلاّطات مغاسل صدئة. أشرطة كاسيت واسطوانات متربة لفريد الأطرش وناظم الغزالي وأسمهان وليلى مراد إلى جانب أكوام من صامولات مدهّنة

ومسامير ومفكات. أقدام تقفز فوق كل شيء. عابرة من شارع إلى شارع. من عمر إلى عمر. في سوق الجمعة تتجاور السلع المعروضة بحسب أعمارها. وجوه ودشاديش. أذرع وأكف وأصابع وعملات نقدية. ذلك كله مغلّف بغيوم من روائح: لحوم مشوية وحلاوة دهينة ساخنة. شلغم مسلوق بالتمر وباقلاء ولبلبي بكراع غنم. أيد تمتد وصحون تُملأ وطاسات. أفواه تتحدّث وتلوك. تلوك وتتحدّث. أفواه لا تتحدّث ولا تلوك. نتدافع وسط الجموع متوجهين إلى سوق الطيور. لن يمنع ذلك أن نتوقف مرّات أمام صفوف طويلة من درّاجات ناريّة ملمّعة وأخرى هوائية. أمام منحوتات بأحجام مختلفة: أفيال وزرافات وأسود وتماسيح. نساء رشيقات مقطوعات الأذرع صدورهن المكشوفة صلبة مقببة ورجال عراة أعضاؤهم الجنسية مقوّسة مثل قطع خيار ذابلة. أمام بسطات الصور. صور عجيبة لأولياء بهالات مضيئة. تستقرُّ أكفهم على قبضات سيوف مذهّبة مشقوقة النهايات. قرب أقدامهم تستكنُّ أسود آمنة أو تتراكض خراف صغيرة بيضاء. صور ملوك بتيجان وسلاطين بعمائم وقادة بنياشين. صور أناس عاديين: صور زواج. صور مدارس وسفرات. صور عمّال وجامعيين وضبّاط. أنظر لها متصوراً اللحظة التي بيعت فيها مع أواخر الأشياء التي تملكها الأسر. آخر خاتم فضة. وآخر قلم حبر. وآخر قميص خلّفه الأب. خاتم نُسي منذ زمن بعيد وقلم لم يعد يستعمله أحد وقميص لم يعد يناسب أحداً. صور سقطت عن جلود أصحابها مثلما تسقط شعرة. ينفخ عليها الزمن نفخته القاهرة فتسقط دونما ألم. تتمايل في هواء الذكرى قبل أن تستقرَّ على رصيف السوق. بعيداً في راحة الأشياء المهملة. ورقها مُصّفر ولمعتها ذاوية. تمرّ بها أقدام العابرين من دون أن يراها أحد منهم أو يسمع نداءها. يرى الصور القديمة المغسولة بمياه

النسيان ويسمع صوتها المكتوم. هناك. على البسطة نفسها. رأيت الصورة قريباً من الحافّة المتربة. قريباً من الأقدام. باهتة ومحززة. إطارها الأبيض مصفرّ مثل باقي الصور. لو لم أقرأ التعليق المطبوع أسفلها لما استوقفتني أبداً. التعليق الذي ضرب أعماقي وتصاعد طعمه مُرّاً إلى بلعومي:

عبد الكريم قاسم بعد لحظات من إعدامه.

ـ الصور تكذب.

صاح يوسف.

صاحت البنت التي تنام في حنجرته.

صاح معلّم التربية الدينية.

ـ الصور تكذب.

صاح أستاذ طاهر بعد أن قطع درس التاريخ ووقف بجسمه الضئيل تحت مروحة السقف.

مروحة السقف وهي تدور دورانها البطيء.

ـ الصور تكذب.

صاح ياسين وسط جلبة السوق.

لم يسمع صيحته أحد.

غابت صيحته وسط ضجيج الباعة والنواح المتصاعد من أجهزة التسجيل.

في سوق الطيور ينفتح زقاق جانبي قصير يظلله سقف صفيح مضلّع

صدئ. مع خفق الأجنحة لحظة يفكر طائر أن يطير. يفرد جناحيه ويصعد تحت سماء سلكيّة مجرّباً حريّة أن يحلّق في قفص. رأينا الكلب. كلب صغير مكوّر بشعر طويل. يغطّي جسمه وينزل على عينيه. قال أن اسمه كيكي. كرّر اسمه بصوت عال وهو يلاعب سلسلة معدن بحلقات فضية لامعة مربوطة بحزام جلد بني يلتف على الرقبة المشعّرة. صفّر صافرة قصيرة نفذت مثل سهم إلى أذن الكلب فوقف على قائمتيه الخلفيتين. صافرة قصيرة ثانية وكان الكلب قد قفز متشقلباً في الهواء. استدارت السلسلة معه قبل أن يحطَّ على قائمتيه الخلفيتين. نفض رأسه مسدلاً شعره على عينيه وحرّك أذنيه مترقباً الصافرة.

كان كيكي يهرول أمامنا. نباحه يفتح منفذاً بين الأجساد المتزاحمة. تلتفت الوجوه مبتسمة لمرأى كومة الشعر النظيفة تدبّ على قوائم قصيرة. تشمشم الطريق. نوسّع خطواتنا حتى نكاد نهرول وراءه. ياسين يُمسك حلقة السلسلة. تسحبه مرّة ويسحبها. ولم أكن أدري ما أفعل. أقفز فوق كيكي فيعلو نباحه ثم أقترب من ياسين. أمدّ يدي وأشدّ السلسلة. في الباص جلست إلى جانب النافذة المفتوحة. قفز كيكي على رجلي مسنداً قائمتيه الأماميتين أسفل النافذة. كان يواصل نباحه على الناس والسيارات والأشجار والبنايات. يمدّ رأسه المشعّر الصغير وينبح على كل شيء. يزيد الباص من سرعته فتطيّر الريح شعره عن عينيه. ينبح على الريح مغمض العينين. كلما تزداد سرعة الباص يشدُّ ياسين على السلسلة. يخشى أن تُلقي به الريح خارج النافذة.

أتصوّره يطير. كومة شعر تندفع أعلى من السيارات. تلتفُّ محلّقة في الهواء. يُخرج الركاب رؤوسهم من النوافذ. بعضهم يدفع بجسده خارج الباص ليتابع المعجزة. كلب يطير. يحلّق مثل غيمة منفوشة الشعر. ينبح على الناس والسيارات والأشجار والبنايات. ينبح على كل شيء. إنه يمشي في الهواء. ألا ترى. لكن كيكي لم يكن يطير. لم يكن يمشي في الهواء. كان ينبح على الريح ثم يُخبئ رأسه خلف الزجاج. يلملم نفسه حتى يخففَّ الباص من سرعته وتمرّ الريح ثم يعاود الوقوف على قائمتيه مواصلاً نباحه. خلف سوق المعقل نزلنا. فور نزولنا أخذ يركض على الشوارع الفسيحة الفارغة. ياسين يركض وراءه ممسكاً السلسلة وأنا أركض بينهما. أركض واضعاً يدي على جيب القميص. جيب القميص الذي وضعت الصورة فيه. أتحسس ورقها المتيبس وأسمع نداءها. نداؤها يرنُّ في رأسي. لم يُدرك ياسين معنى الجملة المطبوعة أسفلها. لم أدرك معناها. معنى أن تلتوي رقبته وقد اصطدم رأسه بالجدار. معنى سقوطه عن الكرسي. معنى أن يتمدّد مرمياً على الأرض. معنى البركة السوداء الممتدة من أسفل صدره حتى فخذيه.

فتح عينيه بمواجهتي وقال:

ـ عبد الكريم قاسم؟

قلت:

ـ عبد الكريم.

كأننا نتحدّث عن دروس التاريخ تتوالى درساً بعد درس. يأتي في كلِّ درس منها. في وقته المعتاد. بقامته الرشيقة المعتدلة. ببزّته العسكرية. بسدارته

المائلة. بمسدسه الويبلي. يأتي ببجامته المقلّمة غير المكوية. بالمنشفة الصغيرة سمائية اللون. مطوية طيّة واحدة وملتفة على رقبته.

عبد الكريم قاسم شخصية لا تغيب عن درس التاريخ. مهما كان الدرس. تاريخ أوربا أو تاريخ الإسلام. تاريخ العراق القديم أو تاريخ الوطن العربي. لابد من نقطة يتوقف عندها الأستاذ طاهر. ينقطع الدرس معها لحظات قد تطول أو تقصر. لكنها على الدوام لحظات فاصلة. يتوقف معها تاريخ أوربا ويغيب تاريخ الإسلام ويتجمّع تاريخ العراق. القديم والمعاصر. في نقطة واحدة. لتتواصل حكاية الزعيم بصوت خفيض. يبدأ الأستاذ من النقطة التي توقف عندها. من اللحظة التي ترك فيها الزعيم واقفاً وراء باب الحكاية المردود. يتنحنح كأنه ينفض عن صوته غبار التاريخ. الآن وقد تغيّر صوته وبدت ملامحه أكثر ألفة سيواصل حكايته. سيعود صبياً بدشداشة مقلّمة يجول في حكاية الزعيم على امتداد سنوات حكمه الأربع وأشهره الستة وأيامه الخمسة عشر. سنة بعد سنة وشهراً بعد شهر ويوماً بعد يوم حتى اللحظة التي انطلقت فيها العيارات النارية في التاسع من شباط 1963 في دار الإذاعة فأردته قتيلاً. اللحظة التي لم تصلها حكاية الأستاذ طاهر في أي درس من دروسه. ظلَّ الزعيم يهيم بعيداً عن دار الإذاعة. بعيداً عن اللحظة التي عدّل فيها سدارته على رأسه قبل أن يجلس على الكرسي كأنه يتهيأ لالتقاط صورته الأخيرة وقد استمع إلى قرار مجلس قيادة الثورة. بعيداً عن التاسع من شباط. لم يسمع سرب الطائرات يخطف فوق وزارة الدفاع في الليلة التي سبقت مقتله ولم يربكه دوي القذائف المتلاحقة. حتى

تصورناه رجلاً يتجوّل بقامته الرشيقة خارج درس التاريخ. مع كل خطوة من خطواته يتعالى هتاف الجماهير: ماكو زعيم إلا كريم. أمام سيارته الشفرليه موديل 1958 كان يمشي. يلتفت رافعاً يديه كما في الصورة التي التقطها له ناظم رمزي خلال زيارته لمرقد الإمام الحسين. الصورة التي أخرج الأستاذ طاهر نسختها من بين صفحات كتاب التاريخ كما يلتقط كنزاً ثميناً. الزعيم بسدارته المائلة قليلاً إلى اليسار وشاربه المشذّب الدقيق وعينيه نصف المغمضتين. الصورة التي كانت تبرق في الضوء كأنها أُلتُقطت تواً. كأنها لم تُلمس من قبل. كأنها لم توضع في كتاب التاريخ سنة بعد أخرى. تحت المروحة الوحيدة يتوقف الأستاذ طاهر بجسمه الضئيل وبدلته الرصاصية. بنطلونه المكوي على الدوام يطرد عنه شبهة الدراجة النارية التي ينوء بدفعها نهاية الدوام منتقلاً بها من ممر الإدارة حتى رصيف المدرسة. يلتقط أنفاسه ثم يضغط عتلتها بقدمه اليمنى. لحظتها يكون قد خلع رباط عنقه المقلّم و زرّر سترته و طوى أسفل ساق بنطلونه اليمنى ودسّها في فردة الجوراب. كان الأستاذ قد وصل إلى لحظته الذهبية. لحظة الحنين التي تبتلع الدرس مثل ثقب سماوي أسود. استدار بحديثه كما لو كان يُدير مقود دراجته إلى النقطة التي نزل الزعيم فيها من سيارته مقابل مطعم صغير يُطلُّ بواجهته الزجاجيّة على الشارع الرئيس بين قلعة صالح والبصرة. كان محرّك السيارة قد بدأ يسخن فالتفت السائق برتبته الفضيّة المثبتة على ياقته إلى الزعيم الذي أتعبه الجلوس الطويل فبدأ يُحسُّ خدراً خفيفاً في أطرافه. استأذن أن يوقف السيارة لتبريد المحرّك. بهزة هيّنة من رأسه وافق الزعيم. مدّ يده ليلتقط السدارة التي وضعها إلى جانبه قبل أن يميل برأسه على مسند الكرسي ويغفو. أمام المطعم توقفت السيارة. كان الأستاذ طاهر الذي لم يكمل دراسته المتوسطة بعد قد رأى

الزعيم داخل السيارة يثبت سدارته مائلة ثم شاهد المفوّض حال توقف السيارة يُسرع تجاه الباب الخلفي. يفتحه مؤدياً التحية. ركض الصبي داخلاً إلى المطعم تسبقه صيحته. ولما لم ير أباه في مكانه المعتاد خلف المنضدة فقد أكمل ركضه تجاه المطبخ مواصلاً صيحته:

ـ إجه الزعيم .. بويه.. إجه.

في رطوبة المطبخ الضيّق. من بين لفح النيران تحت القدور وبخار اللحم المسلوق سمع الأب الصيحة لكنه لم يتبينها على نحو دقيق. طاهر الآن في باب المطبخ يده تمسك ذيل دشداشته البوبلين المقلّمة. عيناه في عيني والده. والده الذي أخذ يسأل غير مصدّق ما سمع:

ـ شنهي؟

فلم يكن من طاهر إلا أن يعيد كلمة واحدة. كلمة ظلت تتكرر على لسانه طويلاً.

ـ الزعيم.. الزعيم.

قال بحرارة وانفعال. فما كان من الأب إلا أن قفز قفزة واحدة وضعته في قلب المطعم. كان الزعيم لحظتها يخطو متمهلاً إلى الداخل. أكمام قميصه مفتوحة الأزرار ونطاقه الكتّان يميل تحت ثقل مسدسه الويبلي المربوط بحبل إلى رقبته.

إنه يستعيد المشهد في كل مرّة يتحدّث فيها. مشهد دخول الزعيم إلى المطعم. تختلط الأصوات في ذهنه وتتداخل الملامح وتتصاعد رائحة اللحم المسلوق من أقصى الذكرى. من بين ضبابها الأبيض الخفيف يرى وجه أبيه

وقد أفزعه النداء. ثم ينظر من باب المطبخ ويرى الزعيم يجلس في ركن المطعم. سدارته مطبقة بين يديه وقد شبك أصابعهما على سطح المنضدة المحفّر. من رقبته يتدلى حبل التضحية المعقود على صدره. الحبل الذي لم ير طاهر عسكرياً يرتديه غير الزعيم. كأنه وحده يلفُّ على رقبته حبل تضحية يتدلى مثل قلادة. وفوق القلب مباشرة. علّق شريطي الأوسمة بمربعاتهما الملوّنة. أحدهما فوق الآخر. يتجاوز الأسفل فيهما جيب القميص بألوانه المتعدّدة. كان يتحدّث مع أبيه الذي جلس أمامه. يداه تمسكان حافة المنضدة ورأسه يميل إلى أمام كأنه يهمّ في كل لحظة بالنهوض.

كما لو كان يعرف. كما لو كان ينتظر عودة المجلات بشغف هو الآخر. قادنا كيكي في طريق الصباح باستدارته الطويلة وصولاً لبيت يوسف. كما لو كان يعرف. كما لو كان ينتظر. وقف أمام البيت. في حديقته الصغيرة بشجرة البمبر المظللة. ونبح. نبح بصوت الكلب المدلل. راكضاً في الحديقة. وكان ياسين يركض وراءه. يركض وراءه ويصفّر. كيكي يقف على قائمتيه الخلفيتين. ياسين يصفّر. كيكي يقفز. يتشقلب. يستدير في الهواء. شعره ينتفش. يطير. غيمة من صوف أبيض. من قطن مندوف. لم يكن ثمة مكان أهم بالنسبة لنا من حديقة بيت يوسف. الحديقة التي لم تكن تختلف عن حدائق بيوت المعقل في شيء. لكنها. مع ذلك. الحديقة التي لا تشبهها حديقة. كنا نقيم فيها مهرجاننا. سوق جمعتنا الصغير. من دون أن يعبأ بنا أحد. كان شعور بالصدِّ والإهمال ينمو تحت جلودنا. يحرّك رؤوس إبره الدقيقة ويؤلمنا. في

اللحظة التي نركض فيها. في اللحظة التي نصفّر ونقفز ونتشقلب. نركض مع كيكي. نصفّر ونتشقلب. نُمسك بأحد أغصان شجرة البمبر. نُغمض أعيننا ونستنشق رائحتها. رائحتها الكثيفة الرطبة مثل رائحة العجين الخمران. ونتأرجح. نتأرجح في سماء الحديقة. نتأرجح في سماء الصور. تؤلمنا رؤوس الإبر فنودّ لو نسقط. نسقط على الشواطئ الرملية الفسيحة. نغور بين ذرات الرمل. نسقط على البحر. نمشي على مائه ولا نغرق.

لم أفكّر أن أضع الصورة في الدفتر أول الأمر. وضعتها في كتاب التاريخ على عادة أستاذ طاهر. كان يدخل الصف وبيده نسخته النظيفة من الكتاب. حتى إذا وصل إلى نقطته الفاصلة فتحه ونظر إليها. فكّرت أن أفتح الكتاب أنا أيضاً. في اللحظة التي يتوقف فيها. وأنظر إلى الصورة. وربما ذهب تفكيري أبعد من النظر. أبعد من مواجهة صورة بصورة. لكن شيئاً ما كان يمنعني. يقطع تفكيري ويكبّل يدي. يدفعها بعيداً عن الكتاب. ربما كان صوت ياسين المفزوع وهو يسألني:

ـ هل ستريها لأستاذ طاهر؟

ربما كان صوت أبي وهو يحدّثنا عن رؤيته عبد الكريم قاسم في مجيئه إلى المعقل. كان صوته يرقُّ وكلماته تبدو أكثر خفة وهي تتصاعد من حولنا:

ـ لم يكن بيني وبينه إلا أمتار. أمتار قليلة. كان جالساً في المقعد الخلفي وإلى جواره مزهر الشاوي. كنت واقفاً على الرصيف ببدلة العمل الزرقاء وإلى جانبي الحاج حميد بدشداشته وعباءته وعقاله. نظر لي وابتسم. نعم.

رفع يده نحوي وسط حشود العمال المتدافعة على الرصيف وابتسم.

كان أبي يُعيد حكاية اليد المرفوعة والابتسامة كلما أخذه الحديث إلى الزعيم. عمّال كثيرون كانوا يُعيدون الحكاية نفسها. كل عامل من عمّال الميناء كان يكرّر حديث يد الزعيم المرفوعة وابتسامته المشرقة. كل منهم يُحسُّ اليد رُفعت من أجله ولم تكن الابتسامة إلا له. كنت أخشى إذا أخرجت الصورة أن لا يعود أستاذ طاهر لحديثه. وأن لا يعود أبي. وربما أنقطع صوتاهما حال رؤيتهما الصورة وأخذا يجهشان في البكاء. كان يؤلمني أن أرى أياً منهما يجهش في البكاء. ولسبب ما غريب وغير مفهوم خشيت أن أضعها مقابل أي من صور الدفتر. وضعتها وحدها في الصفحات الأخيرة.

هل كنت أخشى أن يسيل دمه من جديد. ينزل من البركة السوداء الممتدة من أسفل صدره حتى فخذيه. يُغرق الصور ويبلل الدفتر؟

ربما كان نهار الجمعة قد انتصف ونحن نواصل مهرجاننا. إنه الوقت الذي تبدو فيه شوارع المعقل فسيحةً أكثر من أي وقت آخر. فسيحة وموحشة. كان أناس المعقل في ذلك الوقت من كل أسبوع ينقسمون إلى ثلاث مجاميع. ثلاث مجاميع منفصلة. كل منها يمضي على طريق. طرق لا تتقاطع ولا تتقارب ولا تحتكّ. كأنها سكك حديد منفصلة. تنبثق من محطة قطار المعقل ثم تنفصل فور خروجها من تحت أرصفة الكونكريت المرتفعة. تفترق على

الرمال. كل منها تمتد في اتجاه. تتحرّك فوقها ثلاثة قطارات في وقت واحد. ينظر ركاب كل قطار من نوافذ عرباتهم. يرون القطارين الآخرين يمران. يرون الوجوه تنظر من نوافذ العربات الخاطفة قبل أن تمضي مبتعدة في طريقها. مجموعة جامع المعقل. حيث تُركت الدرّاجات الهوائية أمام الجامع في صفوف طويلة متتالية. مثلما جلس أصحابها في صفوف طويلة داخله. بلحاهم القصيرة. ونظراتهم الزائغة. نظرات أناس اعتادوا أن يروا حياتهم في مرآة. مرآة مضببة تلوح فيها أشباح بعيدة عابرة. أشباح بعباءات وعمائم. أشباح بالأبيض والأسود. أشباح بالرمادي الحائل تخطف من دون أن تقف أو تلتفت. في البعيد. في عمق المرآة تبدو خيام قليلة متفرّقة تحت سماء غائمة. مثل ضربات بالرمادي المعتم خلّفتها فرشاة رفيعة متعجلة. إنهم يترقّبون اللحظة التي يقف أحد الأشباح فيها. يقف ويلتفت. اللحظة التي ستنقلهم إلى عوالم بعيدة. عوالم أبعد من سماء الجامع بطلائها المقشّر. أبعد من همهمات المصلّين وترجيعاتهم الخفيضة. أبعد من خيام المرآة. من ضربات الفرشاة الخاطفة. ومجموعة فلم الظهيرة العربي. المجموعة التي تصل لأعلى درجات ترقّبها مع نشرة أخبار الثانية عشرة يبثها التلفزيون. ترقّب يبدأ مع موسيقى أم كلثوم وهي تُنشد بغداد يا بلد الرشيد. ترقّب لا ينتهي إلا مع الموسيقى نفسها تختتم نشرة الأخبار. لا لأن أناس المجموعة يُحبون الأخبار وينتظرون جديدها بشغف. فهم مثل غالبية عراقيي أواخر السبعينيات لم تكن الأخبار تمثّل لهم إلا أكثر الساعات بطئاً وجهنمية. ساعات تزحف. تمر دقائقها على رغباتهم كما لو كانت شاحنات محملة بحجر. إنهم يترقبون خائفين على حلم جمعتهم لأن خبراً جديداً واحداً أو إعادة عرض زيارة عابرة للسيد النائب

ـ لم يكن صدام قد أصبح رئيساً في الوقت الذي كان كيكي يتشقلب فيه ـ يمكن أن يُطيحا بأمل أفراد المجموعة في أن يحيوا ساعتين مع فلم الظهيرة العربي. ساعتان كاملتان يعيشون فيهما خارج المعقل. خارج البصرة نفسها. يحلّقون في برزخ واسع بين الأرض والسماء. سعته لا تتأثر مهما كان الفلم معاداً. ومهما كانت مشاهده محفوظة عن ظهر قلب وحواراته على طرف اللسان. ومجموعة المطابخ. مطابخ دور عمّال الميناء الصغيرة الخانقة التي تظلل سطوحها المسقفة بحصران البردي حياة الأمهات. الأمهات اللواتي أورقت أقدامهن على أرض الاسمنت المحفور.

لم تكن تستهوينا. في سنواتنا تلك. أي من المجموعات الثلاث بأحلام أناسها. وبسماواتها الفسيحة أو الضيقة. المضيئة أو المعتمة. وبأراضيها المعشبة أو المبلطة بالإسمنت. كما لم تكن تستهوي يوسف أو سعود. ملك المجلات الذي ستنشر صورة موته الفاجع على الصفحة الأولى من جريدة الثورة تحت مانشيت لم نكن نُدرك حجم ما سيكلّفنا جميعاً. حجم ما سيأكل من أعمارنا. **إيران تقصف ميناء المعقل**. لم يكن سعود يظهر في الصورة كما يظهر الناس عادة في الصور. فرحين يصنعون ابتسامات أبدية. كان سعود ـ بحسب ما قالته الجريدة ـ كتلة مهروسة من اللحم والدم ملطوشة على بقايا جدار.

كنا أبناء مناسبات أكثر منا أصحاب عادة. تأخذ اللحظات الشاردة بأيدينا فنتبعها راكضين. نعبر من مكان إلى آخر. نمرق مثل أشباح على شوارع المعقل.

نتخلل أماكنها من دون أن نعبأ كثيراً بأصحابها. لم نكن ندخل الجامع. أنا وياسين. إلا في مناسبتين: عند الامتحانات وفي صباحات الأعياد. نطلب في الأولى بحرقة قلب أن تُغفر ذنوبنا. ذنوبنا التي نجرجرها وراءنا إلى قاعات الامتحان مثل حيوانات صامتة. ذنوبنا التي تقفز إلى الدفاتر قبل أن نكتب أسماءنا على الزوايا المخططة. تتمدد على الأوراق وتمنع عن أعيننا الرؤية. وفي صلوات الأعياد مع ارتفاع أذانها الساحر. لأن العيد بلا جامع لن يكون عيداً. الدشاديش البيض النظيفة والعطور الزيتية الحادة. الأسنان المغسولة واللحى المشذّبة. الأصوات الهادئة والوجوه التي ينوّرها التعاطف. أوقات يبدو فيها رجال المعقل جوقة كبيرة من الملائكة. ملائكة بدشاديش وأسنان لامعة. يخبئون أجنحتهم تحت دشاديشهم البيضاء. كان يعجبنا وقتها أن نعيش أدوارنا تحت سماء الجامع المقشّرة. ملائكة صغار لما تنمو أجنحتنا بعد. كما لم نكن من أبناء فلم الظهيرة العربي إلا حينما ينادينا فريد شوقي أو يأسرنا عبد الحليم بلوعته الشجيّة. وقف ياسين ناظراً لشُبّاك الغرفة المطلّ على الحديقة. قطع كيكي حركته. نظر إلى ياسين ثم التفت نحوي. أفلتُّ الغصنَ ونزلتُ واقفاً على الأرض كما لو كنتُ هابطاً ببرشوت. كانت رائحة شجرة البمبر تملأ صدري.

بصوت خدر أقرب إلى أصوات ملائكة العيد. صوت يحرّكه الرجاء ويملؤه الألم. نادى ياسين:

ـ حنش.

نداء واحد فُتح الشُبّاك معه على الفور.

لم يكن يوسف يطلُّ من وراء الشُبّاك. كانت عينا صفاء تحدّقان. عينان مريضتان مفتوحتان على سعتهما وقد ارتسمت حولهما حلقتان داكنتان. كان يُحدّق نحو كيكي بكل ما في جسده من قوّة. بكل ما في روحه من نهم. كيكي الذي التقط نداء العين فاستجاب.

ـ دعه يتشقلب.

قال صفاء.

ـ مرّة واحدة.

أضاف في رجاء من دون أن يحيد بنظره عنه.

صفّر ياسين وقد أذهله المشهد. صفرة خفيضة واحدة. لكن كيكي لم يلتفت أو يتحرّك. لم يقف على قائمتيه الخلفيتين ولم ينفض شعره. لم يحرّك ذيله ولم يرفع أنفه. ظل مأخوذاً بالعين التي تنظر. بالروح التي تنادي.

في الطريق إلى البيت حملت كيكي. أفلت ياسين السلسلة التي ظلّت تحتكُّ بالإسفلت. تحتكُّ بخشب الجسر. كان كيكي هادئاً. خفّض رأسه ولملم جسمه. بدت غيمة الصوف الصغيرة صغيرة بين يدي. مع كل خطوة تصغر أكثر ويخفّ وزنها حتى خشيت أن تذوب قبل أن أصل إلى البيت.

ـ هل يتنفس؟

سألني ياسين.

رفعت كيكي. قرّبته من أذني وسمعت أنفاسه. كانت غيمة الصوف دافئة بين يدي. لم أكن أصدق أن بمقدور عيني صفاء أن تقتلا كلباً مثل كيكي.

وصلت إلى منتصف السُلّم. سُلّم الخشب وهو يئز تحت قدمي. نازلاً من السطح. سطح منزلنا الترابي الطويل. عندما سمعت صوت أم سعود بنبرته العالية وجرسه العميق. اندفعت أمي من عتمة المطبخ تتبعها غيمة من دخان إلى ضوء الباحة. الباحة التي سقّفتها قطع الأسبست المضلّع وملأتها رائحة سمك مقلي. كان شعرها الملموم في ضفيرة ثخينة ينوّر في الباحة وهي تتحرّك بين خيوط الضوء المتسللة من ثقوب الأسبست. تلمسه أعمدة الضوء المائلة فتبرق الحناء بحمرتها الكثيفة. حمرة مسحوق الأعشاب المعجونة مع الشاي. بلونها الرماني الذي لا يُنسى. كانت أم سعود قد دخلت. عبرت الممر بعد أن نادت نداءها الوحيد:

ـ يهل البيت.

استقبلتها أمي في نهاية الباحة. وضعت يدها مقبوضة على كتفها وطبعت على خدها مجموعة من القبل. قبل مسموعة أكثر منها ملموسة. حيث لا تقع الشفة على الخد. تقترب من أعلى الرقبة. أسفل الأذن. من دون أن تلمس أياً منهما. مصحوبة بأصوات متلاحقة أقرب إلى المزمزة والتمطق منها إلى التقبيل. كلما ارتفع صوت القبلة غدت ـ في عرف نساء المعقل ـ أكثر تعبيراً عن المعزّة والاشتياق. وقفت الاثنتان تحت غيمة من رائحة السمك. رائحة

السمك المقلي المنفّرة وهي تركد نهاراً طويلاً في كل زاوية من زوايا المنزل قبل أن تهتدي أمي لرائحة الحرمل.

ـ لا تطرد الرائحة إلا الرائحة.

قالت ذات يوم ملخّصة اكتشافها.

ـ رائحة الحرمل وحدها تطرد العين الشريرة والنَفَس وزفرة السمك. حتى أصبح من المألوف أن نركس في دوامة الروائح العجيبة كلما أكلنا السمك. من غيوم الزفر إلى طقطقة أعشاب الحرمل. حلّفت أمي أم سعود ألا تجلس على الأرض. باندفاعة خاطفة دخلت إلى الغرفة وعادت ببساط من صوف منقوش وتكية قماش وجهها مورّد نظيف. كما لو كانا مسندين وراء الباب. مهيأين لاستقبال ضيف من الدرجة الثانية. الدرجة التي لا يُفتح معها باب الديوانية. ولا يُغيّر من أجله ثوب ولا يُغسل وجه. الدرجة التي يكون الضيف فيها أقرب إلى العائلة بيومياتها الرثة: يجلس تحت غيمة من دخان السمك المقلي. وجهه إلى المطبخ. وعيناه تجولان بين الغرف المفتوحة الأبواب. تعاينان أشياءها غرفة بعد أخرى. على البساط جلست أم سعود ورمت عباءتها على كتفيها. فور جلوسها توجهت أمي إلى المطبخ. هتفت أم سعود محلّفة إياها ألا تتعب نفسها. أجابت أمي من عتمة المطبخ:

ـ يا خيّه إنتي يوميه جاية؟

بصينية البلاستك الخفيفة التي تدور على حافتها أزهار كبيرة ملوّنة عادت أمي. وضعت الصينية على البساط. أمام أم سعود التي مدّت يدها إلى كأس الماء المثلّج. شربت نصفه تقريباً. ثم أخذت تذوّب السكّر بملعقة المعدن الصغيرة في استكان الشاي وهي تسأل عن الحجيّة أولاً ومن الحجيّة

تتحوّل للسؤال عن خالي. خالي الذي يلذّ لزائراتنا أن يتحدثن عنه من دون أن يفارقهن الشعور بأن أمي تقطّر أخباره تقطيراً. قطرة عن عمله وأخرى عن زيارته الأخيرة الخاطفة وثالثة عن مشروع زواجه. لم أنزل إلى الباحة ولم أعد إلى السطح. جلست في منتصف السُلّم. على الدرجة التي تتلاعب مع حركة رجلي محدثة صوتاً مكتوماً. أسمع صوت أم سعود وأرى من بين سياج السُلّم نصف وجهها. تحدثتْ عن سعود. عن رغبتها بتزويجه. كل مرّة تأتي فيها تتحدّث عن رغبتها. لا تنقص سعود غير بنت الحلال. كأنها بحديثها عن زواجه تمنع الآخرين من التفكير بما يشيع حوله من روائح الكلام. كلام ينتشر مثل غيوم الزفر. غيوم حكايته مع أرملة المعقل القديم ـ على الرغم من أن أياً من نساء المعقل لا تستطيع الجزم إن كان زوجها قد مات حقاً بقين يلقبنها في أحاديثهن الدائمة عنها بالأرملة ـ الحكاية التي لم تعد تُخفى على أحد. تصمت قليلاً ثم تتحوّل إلى صفاء. ينكسر صوتها وتبتلع الكلمات. ثم تعاود حديثها بصوت صاف يخفت شيئاً فشيئاً كأنها تلمس جرحاً في نفسها. من فتحة الأسبست أرى يدها تعيد استكان الشاي. أرى خاتمها بزرقة فصه الشذري. وأخشى أن تتحدّث عن يوسف. عن المجلات التي يُرعبني أن تكون قد عرفت بأمرها. لكنها واصلت حديثها عن صفاء. عن علّته التي أعجزتهم وعن وقفته الطويلة خلف النافذة. متحولة إلى كيكي. كأنهما مخلوق واحد. متماسك وغريب. نصفه صبي مريض بعينين جاحظتين ونصفه الآخر كومة من صوف نظيف.

ـ كيكي؟

تساءلت أمي مندهشة.

ـ الكلب الذي لعب معه الأولاد في حديقتنا.

بيّنت أم سعود.

نادت عليّ أمي من دون أن تلتفت. لم تكن قد رأت كيكي أو علمت بأمره فقد خبأته في صندوق كارتون التقطه ياسين من كومة كراتين في السوق. لم يعترض كيكي على وضعه في الصندوق. لم يعترض عندما أغلقته عليه. كان ما يزال مخدّراً تحت تأثير عيني صفاء. صعدت به مباشرة إلى السطح.

نادت من جديد فنزلتُ.

ـ وين كيكي؟

ـ على السطح.

قلت.

ـ تحت أسرّة الحديد.

على سور السطح صعدت. عبرت أسواراً ونزلت في سطح بيت ياسين. ألقيت حصاتين متلاحقتين رنتا على سقف الباحة. وكما لو كان واقفاً أعلى السُلّم بانتظار الرنّة شخص أمامي على الفور.

قلت له:

ـ أم سعود.

قلت له:

ـ صفاء.

قلت له:

ـ كيكي.

فتح عينيه على سعتهما.

لم تكونا تشبهان عيني صفاء.
عينا صفاء أقرب إلى عيون الدببة.
عيون الدببة المفتوحة في برنامج عالم الحيوان.

حملت صندوق الكارتون ونزلت. كانت أمي تقف أسفل السُلّم. ثوبها المشجّر يشعُّ في الضوء. ضوء الباحة تسرّبه ثقوب الأسبست في خطوط مستقيمة مائلة تنتهي بمجموعة من البقع المتباعدة.

قالت:

ـ أين الكلب؟

لم تتصوّر أن بإمكان كلب أن يستلقي صامتاً في صندوق كارتون. عندما وصلت إلى الدرجة الأخيرة فتحتُ الصندوق. نظرتْ داخله غير مصدقة.

ـ ما هذا؟

تساءلتْ.

قلت لها:

ـ كيكي.

ـ هل هو كلب حقيقي؟

ـ إنه كلب من لحم ودم. يقف على قائمتيه الخلفيتين. يهزُّ ذيله ويتشقلب. لكنه الآن نائم. ليس له مزاج.

شيء ما يحرّكنا تجاه بيت يوسف. شيء آخر غير الصور. يدعونا للرجوع

إلى الحديقة. كأننا نتحرّك في مشهد معاد. مشهد من فلم قديم من أفلام الجمعة. نمضي من مشهده الأخير حتى مشاهده الأولى. من البيت إلى سوق المعقل مروراً بكومة الكراتين. فتحت صندوق الكارتون وحملت كيكي. التقط ياسين الصندوق الفارغ ورماه عالياً. دار في الهواء وسقط عند أقدامنا بعلاماته الثلاث التي استوقفتني من بينها المظلة المفتوحة.

سألت ياسين:

ـ لماذا يرسمون مظلة على صناديق الورق؟

ـ ربما لأن الصناديق تُحب أن تتمشى تحت المطر.

قال وهو يضرب صندوق الكارتون بمقدمة حذائه فيستقر على الكومة التي التقطناه منها. تركت السلسلة تحتكُّ بالإسفلت. تحتكُّ بخشب الجسر. لم أكن أخشى أن يطير كيكي. أن تحلّق غيمة الصوف عالياً حتى تبدو مثل نقطة ضائعة في سماء المعقل. في سوق الجمعة كان الرجل يُمسك السلسلة. يدوّرها في الهواء. مع كل صافرة كان قلبي ينتفض وأنا أراقب يد الرجل. يد الرجل الثخينة شديدة السمرة كأنها غُسلت بزيت محركات. انتبه لوقوفنا. لدهشتنا مع كل حركة يتحرّكها كيكي. مع كل قفزة.

صاح:

ـ العب ياولد. بخمسة دنانير ياولد.

لكننا اشترينا كيكي بثلاثة دنانير ونصف هي كل ما في جيوبنا. ديناران من ياسين ودينار ونصف مني. لم يبق لدينا غير مبلغ العودة بالباص من البصرة القديمة إلى المعقل مروراً بمنطقة الجمهورية. وها نحن نمضي بكيكي إلى بيت يوسف. مع اقترابنا من الحديقة رفع رأسه. حرّك أذنيه. كأنه التقط

صافرة بعيدة. أعرف أن صفاء بقي واقفاً وراء النافذة. لم يتحرّك منذ أنهينا مهرجاننا وغادرنا الحديقة. دقَّ ياسين على النافذة. دقتين صغيرتين. كان واثقاً هو الآخر من وقفة صفاء. من انتظاره الصامت الطويل. رميت السلسلة فالتقطها ثم ربطها بعمود النافذة الذي قشّره الصدأ. أنزلت كيكي فانطلق سريعاً وقد بدأ ينبح. كان ينادي أحداً ما خلف النافذة. سيُفتح الباب ويخرج يوسف. يوسف الذي جعل منه فرح أخيه صبياً آخر. لا تنام في حنجرته بنت ولا يصيح معلّم تربية دينية.

سيهتف باتجاهي:

ـ إمسك.

فأقفز بخفّة مثل حامي هدف. أطير في انحناءة قوسية واسعة. أتلقف المجلة التي رمى بها نحوي. أفتح يدي وأسمع اصطدام الورق بهما. الورق الذي نشر في فضاء الحديقة مروحة من قوس قزح. قوس من أجساد وملذات. رأيت ياسين يقفز هو الآخر. يداه مفتوحتان.

فُتح الباب وخرج سعود. وجهه داكن السمرة مثل وجوه هنود البواخر وشعره واقف. يداه على مقود دراجته الهوائية. دراجة عمال الميناء الصفراء. نظر نحونا متسائلاً:

ـ هذا كيكي؟

ـ اشتريناه صباح اليوم من سوق الجمعة.

قلت.

ـ إنه هدية لصفاء.

قال ياسين وما زالت يده تمسك بالسلسلة.

تقدم سعود خطوات. دفع دراجته إلى اليمين. ثبّت قدمه اليسرى على الدواسة ثم قفز رافعاً جسده القصير إلى الأعلى. استقر على السرج. باندفاعة سريعة نزلت الدراجة عن الرصيف. جسده يصعد وينزل مع حركة الدواسة. كتفاه العريضتان تتناوبان الصعود والهبوط. التفت إلينا. تصورته يقول شيئاً.

ـ سيفرح صفاء كثيراً.

لعله لم يقل ذلك.

لعله قال شيئاً عن المجلات المتروكة فوق سطح دولابه الخشب وهو يقود دراجته باتجاه المعقل القديم. باتجاه جنته الليلية. لعله قال شيئاً عن الصور. **الصور التي تكذب**. صور المجلات الملوّنة بأجسادها الفاتنة. وصور الجرائد التي يموت الناس فيها.

مرّات كثيرة رأيت سعود. في معظمها كان يركب دراجته. لم يكن يختلف في ذلك عن عمال المعقل. لكنني تصورته حينما نُشرت الصورة في الجريدة قد ذهب إلى الموت راكباً دراجته. لم يكن قد تغيّر كثيراً. جسده القصير يصعد وينزل. وجهه داكن السمرة مثل وجوه هنود البواخر. لكنه فقد شعره. شعره الواقف على جلدة رأسه كأنه زرع شعرة شعرة بعد أن نزلت عليه القذيفة مباشرة. كأنها قذيفته. أراه يندفع باتجاه المعقل القديم. جلدة رأسه تلمع في

الضوء. باتجاه الجنة التي لم يمنعه الموت من مواصلة الذهاب إليها.

أخذت الجريدة من يد أبي. يد أبي التي لم تعتد تصفح الجرائد. كانت ترتجف وهو يؤشر على البقعة الدموية على جدار الميناء. بقعة معتمة قرّب إصبعه منها وقال:

ـ وقعت القذيفة عليه مباشرة. خلّفت حفرة واسعة لم يكن فيها أي أثر. كل ما بقي من سعود هذه البقعة المدماة على الجدار. نتفة من جلدة رأسه دلّت عليه.

كان صوته منخفضاً بالكاد أسمعه. تقطّعه عبرة مكتومة. وعيناه تلتمعان خلف زجاج نظارته. وضع يديه مشبوكتي الأصابع على رأسه. حركة لم أدرك معناها ولم أرها من قبل. كانت المرّة الوحيدة التي أراه يشبك أصابعه فيها على رأسه. نادى على أمي. أمي التي كانت تبكي. أسمع حركتها داخل المنزل. أسمع نشيجها. وأحدّق إلى الصورة. الصورة التي ستبقى طويلاً. أقطعها من الجريدة بعد أن تُركت أياماً على الأريكة حيث جلس أبي. كأن أحداً لم يرغب برؤيتها مرّة أخرى. أحتفظ بها بين أوراق دفتر الصور. حيث ينام عبد الحليم مصفوف الشعر على سرير المرض. الصورة التي ستظل في الدفتر. تقابل صورة عبد الحليم. من دون أن أكتب تحتها أي تعليق أو أفكر برؤيتها. كانت التعليقات تضج في رأسي. تتقاطع وتشتبك. كلما فكرت بسعود. بغيابه الذي لا يشبهه غياب أحد من أهالي المعقل. وفي كل مرّة تعود الصورة إلى ذهني. كأنها الصورة الوحيدة في الدفتر. لا عبد الحليم ولا خالي ولا الملاك ولا عبد الكريم قاسم حتى. وحده سعود في حفرته الواسعة. على جداره المهدّم. يعبر

من صفحة إلى صفحة. ربما سحبت الدفتر من مكانه في دولاب الملابس. مدّدت يدي تحت ملابسي وتحسسته. تحسست غلافه. حطّت أصابعي على خارطة العراق الباهتة على الغلاف. فتحته لأمرّ على صور عبد الحليم. صورة بعد أخرى. ولم أقف عند صورته على سرير المرض. كان يخيفني أن أرى سعود في الصفحة المقابلة. أن أرى بقعة الدم سوداء على الجدار. الصورة التي ستحيا في أذهاننا طويلاً. وهي تنتقل من مكان إلى آخر في الدفتر. قبل أن أفرد لها صفحة لا تقابلها صورة. وقد تغيّر لونها وتغيّر ملمسها. ثم أعود فأضعها مقابل صورة كيكي بين يدي الملاك. بين يدي ملاك الشمع وقد أطّرها خشب النافذة بطلائه المقشّر. بخضرته المنهَكة. ربما لرغبتي في أن أجمعهما معاً. سعود وصفاء. صورة سعود المقطوعة من الجريدة التي تركتها دونما تعليق تقابلها صورة صفاء الملتقطة بكاميرا البولورايد. أول صورة التقطها ياسين وهو يحدّثني عن الكلب القافز النظيف. أول صورة رأيتها فحدّثته عن كيكي وعن ملاك الشمع. لكنني كلما فتحت الدفتر وتصفّحت الصور تعود التعليقات إلى رأسي. واضحة ولها صوت. أراها وأسمعها كما لو كان أحد ما يقرؤها خلف أذني بصوت واضح وعميق. لكلماتها بريق معدني. لكلماتها صلصلة مثل صلصلة الجرس. ثم تتقاطع أصواتها. تتداخل وتشتبك. وهي تكرر ما كتبته الجريدة. عن إيران وهي تقصف ميناء المعقل. كانت تتحدث عن كتلة مهروسة من اللحم والدم ملطوشة على بقايا جدار.

كان يوسف يحدّثنا. مثل طيف عابر بعيد نستعيد الصورة كلما وصل بحديثه إلى أخيه. يبتكر في كل مرّة حكاية مختلفة. حكاية عجيبة يدرأ بها

موته. يمحو صورة الجريدة. يُزيل بقايا جدارها المهدّم ويغيّب بقعتها الكثيفة السوداء. يمحوها ويضيف بدلاً عنها صورة جديدة. صورة يمسح بها موت سعود كما يمسح بخاراً عن مرآة. لا ليرى وجهه على زجاجها المضبّب بل ليمنح وجه أخيه فرصة يطلُّ منها على العالم مرّة أخرى. كما لو كان يطلُّ من نافذة صغيرة مدوّرة. كاملاً مكملاً لم تهشّمه قذيفة من قبل. فرصة يتحرّك فيها مثل شبح على شوارع المعقل ـ الأشباح تحنّ لشوارعها القديمة أيضاً وتشتاق لوجوه أناسها ـ وقد حلق شعره. يختبئ في المطار. تحت المسقفات الطويلة شبه المعتمة. بين هياكل الطائرات الخارجة عن الخدمة. لابساً خوذة طيار قديمة. أذناها تتلاعبان في الهواء كلما أطلَّ من النافذة لينادي أخاه. تضربه الريح القوية فيغمض عينيه وينادي. ينام في سجن المعقل. سعود الذي لم يُحقق معه منذ أُلقي القبض عليه. ظلَّ محتجزاً تحت الأرض قريباً من محطة القطار. صوت يوسف يتهدّج. يتطوّى مثل قماش نسائي خفيف. ينقطع ثم يواصل:

ـ إنه مثل باقي نزلاء سجن المعقل يوقّت حياته على حركة القطار. انطلاقه من المحطة أو عودته إليها. مع حركة القطار ينقطع حديث السجناء. تتوقف حركتهم كما لو كانوا تماثيل. إنهم ينصتون لصوت بعيد. صوت كائن حديدي يزحف. مع ازدياد سرعته يُحسون اهتزازاً تحت أقدامهم. يُغمضون أعينهم. يعيشون لحظة انطلاق القطار. سعود الذي نُقل مع عشرات المسجونين في ليلة شتاء ماطرة إلى مستشفى الموانئ بعد أن مات الكثير منهم جراء الإضراب عن الطعام. لمحته إحدى مضمدات ردهة الباطنية. من فروة رأسه تعرّفت إليه. لقد تغيّر شكله. لم يعد ممتلئاً كما كان. لم يعد عريض الكتفين. لم يعد داكن البشرة. أصبح أقرب في شكله إلى صفاء بعوده النحيل

وبشرته الصفراء. بعينيه اللتين منحتهما ظلمة السجن تحديقة مفزعة.

ـ في الليل جاء والد الممرضة إلى بيتنا. كان يرتدي دشداشة رمادية مكرمشة تنزل ياقتها على كتفه مثل لسان كلب ويلفُّ على رأسه شماغاً منقّطاً.

قال يوسف.

كان ينظر إلى عيني.

كان ينظر إلى عيني ياسين.

ـ لم يدخل الرجل. ظل واقفاً في الممر. لم أر ملامحه جيداً. لم أتعرّف إليه. كان خائفاً يحرّك رأسه مثل جرذ صغير. مع كل حركة تلمع شعرات لحيته القصيرة البيضاء في الضوء الخفيف وتتحرّك ياقته. حدّث أمي عن سعود. سعود الذي عرفته ابنته المضمدة من فروة رأسه. التقت أعينهما في ضوء الردهة والتقطت رجاءه. إنه ما يزال حياً. قال الرجل. بإمكانكم أن تسألوا كيورك أبو غازي. جاءوا به من منزله وظل واقفاً في الردهة هو الآخر. ينظر إلى المسجونين والضباط الذين امتلأت بهم الردهة ويده ترتجف. لم يكن يدري ما عليه أن يفعل. استدار الرجل نحو الباب. كان ما يزال يردد:

ـ سيتذكرونه يوماً. سيحققون معه ويطلقون سراحه. لا علاقة له بالإمام. ولم يخرج على درّاجته من أجله. أهل المعقل يعرفون.

في كل حكاية يقول ذلك

يتحدّث عن الدرّاجة التي لم يخرج عليها

وعن الإمام الذي لا علاقة له به
يوسف الذي يمحو بالحكاية موت أخيه.

كما في الخيال كان سعود يغيب. يتشظى. يموت بعد أن تسقط عليه قذيفة. أول قذيفة تُلقيها إيران على ميناء المعقل. لكنه يعود من موته في حكايات يوسف المتوالية ليُلقى عليه القبض في ليلة حالكة. يُسجن أو يفرُّ ليختبئ. في كل حكاية له غياب. وفي كل غياب يحضر الخميني. مثل طيف صامت يرفع يده من وراء جدار. حضور الإمام في الحكاية يفصل بين ميتتين يموتهما سعود. واحدة تؤكدها الصورة. **الصورة التي تكذب**. وأخرى تنفيها الحكاية. الحكاية التي يتسلل سعود فيها على درّاجته من دفتر الصور. من صفحته المقابلة لصفحة كيكي بين يدي الملاك. من وحشة الصفحة التي بقيت فارغة. من فراغها الذي واصل عبد الحليم النظر إليه ملتفتاً من سرير مرضه الطويل.

كان سعود على درّاجته. تبلل وجهه برودة هواء السابعة صباحاً. يمضي عبر شوارع المعقل بأشجارها العالية. وهي تنشر غيمة من رائحة عجيبة. غيمة من أنفاس الرازقي واليوكالبتوس والسدر والبمبر. الأنفاس التي يُحسُّها تنبض في دواخله. سنة بعد سنة وصولاً لصباح يوم الأحد. الرابع من تشرين الأول عام 1978. تحت هواء السابعة صباحاً كان يمرُّ في شارع

المحطة الواسع متوجهاً إلى رصيف الميناء. كثير من العمّال يقودون درّاجاتهم إلى جانبه ببدلات عملهم الزرق الموحّدة حينما خطفت وسط الشارع ثلاث سيارات لاند كروز رباعية الدفع. التفت سعود وهو يُحسُّ قلبه يدق ونبضه يتصاعد. يأخذه من برودة الهواء. من غيمة الرائحة العجيبة. إلى لحظة يخافها. يخاف نوافذها مسدلة الستائر.

في الخانة الخلفية من السيارة الأمامية. سيارة اللاند كروز. كان جالساً بمفرده. يداه مفتوحتان على ركبتيه كأنه يهمُّ بالنهوض. على رأسه عمامته وفي ذهنه ما يزال يتردّد صوت رئيس الوفد. منذ ما يقارب الأسبوعين وهو يتردّد. يُلقي جمله القصيرة ببطء واحتراف. جمل ترنُّ في الغرفة مثل حلقات سلسلة حديد. يسحبها واحدة بعد أخرى. يخلّصها من بعضها. ويرمي بها إلى الجدار. يبلّغه رغبة صدام حسين في أن يغادر العراق في أقرب وقت. لم يكن قد أنعم على رئيس الوفد أو على أعضاء وفده بنظرة. كان يواصل حملقته في سقف الحجرة. يفكّر بما سمعه من ضابط الأمن قبل أيام قليلة فحسب حينما حاصرت قواته البيت. كانت أعدادهم تزيد يوماً بعد آخر بحجة حمايته من اعتداء محتمل. اعتداء يخطط لتنفيذه خمسون شخصاً. لكن الاعتداء لا يحتاج إلى كل هذا العدد. يكفي رجل واحد لتنفيذ أي اعتداء. مهما كان. ذلك ما سيقوله لمرافقيه وأعضاء مكتبه وهو يبلغهم نيّته الاعتصام داخل منزله. منزله القريب من أمير المؤمنين. لكنه الآن يلتفت. في ساعته الصباحية تلك. وقد سحب ستارة النافذة قليلاً. يرى رجالاً ببدلات عمل زرقاء يندفعون

على دراجاتهم الهوائية. أسراباً من الرجال. يرى على وجوههم انطباع الأمان العميق ويواصل الصوت تكرره. كان الإمام ينتظر لحظته تلك. بعد أن تغيّرت الأحوال. مترقباً الوقت الذي يبلّغه صدام فيه برغبته. رغبته التي يعرفها قبل وقت طويل. قبل معانقته للشاه في الجزائر. مع أول وفد أرسله لمقابلته في النجف عام 1974. بعد تلك المقابلة مُنع من مغادرة العراق وبقي تحت الإقامة الجبرية. لكن الوضع تغيّر الآن. وهاهم يختمون بإبلاغه رغبة صدام ثلاثة عشر عاماً قضاها قرب الأمير الحبيب. يتنفس ترابه ويعيش نعيم الصلاة في حضرته. يتحسّس وقع الجمل القصيرة الأليم في نفسه. ويسمعها ترنُّ. كأنما همس بها مترجمه في أذنه. قبل أن يأتيه الوفد. قبل أن يدخل عليه أعضاؤه ببدلاتهم الأنيقة قاتمة الألوان وأربطتهم المخططة. تملأ أنفاسهم الغرفة. أنفاس رجال خائفين.

لسبب ما اختار صدام شفيق الكمالي الشاعر البدوي والرسام والعضو في قيادة حزب البعث الذي كان يشغل منصب وزير الإعلام لعضوية الوفد. كان من المنطقي أن يترأس الوفد سعدون شاكر رئيس الاستخبارات لإبلاغ الخميني رسالته. بعد يومين على استدعاء السيد محمود دعائي عضو مكتب الإمام في النجف إلى مكتبه في بغداد. لإشعاره برغبة بغداد بلقاء الإمام لتبليغه رسالة مباشرة من القيادة العراقية. رسالة فحواها إن استمرار بقائه في مدينة النجف من شأنه أن يشكّل خطراً على أمن العراق. وإنه بالنظر إلى الحالة غير المستقرة في إيران. وحفاظاً على العلاقة بين البلدين. عليه أن يرحل.

وصل الوفد في تمام الساعة الثانية بعد الظهر. دخل سعدون شاكر يتقدم وفداً من أربعة مسؤولين. الكمالي ووكيل وزارته وعنصران من كبار ضباط جهاز الاستخبارات. قبل أن يُسمح لهم بالدخول ظهر سكرتير الخميني ومترجمه الخاص ليُخبرهم أن آية الله لا يرغب في مصافحة أحد. عليهم أن يكتفوا بتحية الإسلام. عندما دخلوا الحجرة الواسعة متقشفة الأثاث كان الخميني يجلس على الأرض بمواجهة الباب. على كتفه عباءته السوداء وعلى رأسه عمامته. ثنى رجليه تحت جسده فلاحظ الكمالي جورابيه الرماديين. تصوّره ينظر إلى حافة البساط. يحدّق إلى شراشيب الصوف. سعدون شاكر وحده ألقى السلام. ردّ الخميني ببرود. لم يرفع رأسه ولم ينهض. غير بعيد عنه جلس أعضاء الوفد. لمّوا أقدامهم تحت أجسادهم. إنهم يخبئون جواربهم عن عيني الإمام بعد أن تركوا أحذيتهم خارج البراني. رفع الخميني رأسه. نظر إلى مترجمه الذي جلس قريباً منه ينقل ما يقوله شاكر. لم يكن الخميني يتحدّث. كان يجيب بنعم أو لا أو يترك مهمة الإجابة لمترجمه. عندما وصل شاكر لفحوى الزيارة التفت الخميني. نظر لهم واحداً تلو الآخر. عندما نظر إليّ أحسست كأنني أقف بمواجهة محرّك طائرة نفاثة. ذلك ما سيعتمل في نفس الكمالي قبل أن تواتيه الجرأة ليهمس به بعد سنوات.

توجّهت سيارات اللاند كروز الثلاث إلى منطقة سفوان. كان الخميني قد قرّر السفر إلى باريس عبر الكويت بعد أن رفضت الأخيرة إقامته فيها. ترددت الكويت في الموافقة على دخوله أراضيها أول الأمر لكنها حسمت

أمرها ورفضت. السيارات تلتهم الطريق المحفّر. تلتهم بيوت الطين على جانبيه. تلتهم المساحات الخالية إلا من شجرات أثل متفرقات. مخلّفة غيمة من تراب. قريباً من نقطة الحدود. في الساحة الرملية الواسعة توقفت. نزل السواق. نزل موظفو الاستخبارات العراقية المصاحبون للموكب. نزل ثلاثة من معيته يحملون جوازات السفر بالأسد الشاهنشاهي المذهّب.

على درّاجته الهوائية الصفراء العائدة لشركة الموانئ العراقية ـ كما تدل لوحتها ـ كان سعود يمضي إلى رصيف الميناء. يعبر شوارع المعقل. يخطف من أصوات العمال على الرصيف. من ضجيج رافعات الشحن والتفريغ. من شمس الشوارع اللاهبة. إلى جنّة المعقل القديم. لم يكن يخشى أن يمرّ على جنته في أي وقت. تحت الأعين المتربصة. بعد أن يكون قد عاد من عمله واستحم. تناول غداءه واستلقى قليلاً. يفتح النافذة التي أطلّ منها صفاء ويترك مروحة السقف الهندية ماركة يوشا تنود برأسها الرمادي الضخم. تجاهد ريشاتها في هواء الظهيرة الرطب. كان يغطُّ في النوم فور أن يضع رأسه على الوسادة كمن يؤدي واجباً. على بلاطات الاسمنت العريضة يفتح يديه وينام عارياً إلا من لباسه الأبيض الواسع النظيف. يفتح يديه وينام. يُضايقه الشعور بقطرات العرق وهي تنزل على جسده في سواقٍ صغيرة باردة. يفتح يديه مثل مسيح ملقى على البلاط. تاركاً القطرات تسيح على الاسمنت. بعد دقائق فحسب يمتلئ هواء الغرفة برائحة مدوّخة. هواء الغرفة تُثقله أنفاس الفم المفتوح برائحة العرق البائتة. هواء رطب ثقيل تلوّثه روائح الجسد

الغائر في لزوجة النوم. كان صفاء يجرجر خطواته إلى الغرفة. يسحبه الشخير وتناديه الرائحة ليستلقي على العتبة مستمتعاً برطوبة البلاط المرشوش. يُسعده أن يمنح نفسه للهواء المثقل بالرائحة والأحاسيس الغريبة. كان يحرص ألا يدخل إلى الغرفة بخطواته التي لا تُسمع مثل خطوات فأر خشية أن يوقظ سعود. سعود الذي يُجلسه أمامه على مسند إسفنج في جولاته شبه اليومية. يضعه على بدن الدرّاجة ويدور به في الشوارع. بعد أن يمرّ على بيت المعقل القديم. يدقّ الجرس ثم ينحني من فوق سياج الخشب القصير ليترك على عشب الحديقة كيساً من البلاستك الملوّن. يترك كيس فاكهة. يترك نصف كيلو من اللحم الطازج وربعي عرق زحلاوي. وقبل أن يُفتح الباب يطير على الدرّاجة. على الدرّاجة يطير وصفاء أمامه. قدماه تتدليان على البدن الحديد. يلذّ له أن يلهو بالجرس. يتنفس روائح الأعشاب على ضفة نهر المعقل ويلهو بالجرس. يرى إعلانات الأفلام معلّقة على جدار السينما ويُرسل دقاته بأصدائها المعدنية الطويلة للنساء الجميلات والرجال الأنيقين. كان يرنُّ الجرس حتى تثقل أنفاسه وتتعب أصابعه.

في الوقت الذي انحنى فيه سعود من فوق سياج الخشب القصير ليترك كيس البلاستك الملوّن على عشب الحديقة كانت سيارات اللاند كروز الثلاث قد استدارت فوق الساحة الرملية. بعد أن صعد السواق وموظفو الاستخبارات والثلاثة من معية الإمام وهم يحملون جوازات السفر بالأسد الشاهنشاهي المذهّب. كان النهار قد انقضى على رمل سفوان وقد بقيت

الجوازات في نقطة الحدود الكويتية. استمر عمل النقطة أكثر من وقتها المعتاد من دون أن تُختم تأشيرة الدخول. قبل أكثر من ساعة صعد مرافق الإمام إلى السيارة ليستمع لرغبته بالعودة إلى البصرة فور إعادة الجوازات. ولما لم يكن ثمة ترتيب سابق للعودة أو المبيت فقد قرّر الإمام التوجّه إلى المعقل مرّة أخرى.

ـ للمبيت؟

تساءل المرافق.

ـ للمبيت في الجامع.

أكد الإمام الذي لم ينزل من السيارة طيلة نهار كامل بصوت هادئ كأن الأمر لا يعنيه. وكما شاء. عادت السيارات عبر الشوارع التي قطعتها نهاراً. التهمت الطريق المحفّر. سيارات اللاندكروز الثلاث بوجوه راكبيها وقد غيّر التعب ملامحها التهمت شجرات الأثل المتفرقات. التهمت بيوت الطين على جانبي الطريق مخلّفة غيمة من تراب.

الرجل الذي قضى ثلاثة عشر عاماً في العراق لم ينم في أي يوم منها أكثر من ثلاث ساعات وخمس دقائق على أبعد تقدير. ساعة واحدة للقيلولة. وساعتان قبل آذان الفجر. وهو يمضي على مدارج السبعين. لم ينزل من السيارة على امتداد النهار الذي قضاه في سفوان. كان يفكّر بطهران التي تعالت غيوم البارود في شوارعها. برحلته الطويلة خارجها. من أنقرة إلى بورصة. ومن الكاظمية إلى كربلاء. ومن كربلاء إلى النجف. من حصار إلى

حصار. ومن غربة إلى غربة. مدن تجرّده من عمامته وأخرى تسجنه حيث يقيم.

في هبوب الريح وهي تخفّف من لفح الهواء. مع خيوط الضوء الأخيرة لشمس النهار. دخلت السيارات إلى المعقل. على الشوارع التي قطعتها في انطلاقتها الصباحية. كأنها تسير على سكة حديد. لم تخطف بموكبها من أمام قبّة شركة الموانئ العريضة المغلّفة بالموزائيك الأزرق. بأعمدتها الطابوقية وسياجها الحديد العالي بنهايات قضبانه المسننة. ولم تمرّ من أمام فرع مصرف الرافدين. استدارت إلى اليسار. قطعت مسافة قصيرة في شارع الأرمن ـ الذي قلب الناس تسميته مع أول عقد السبعينيات إلى اللوندري بعد انسحاب الأرمن منه شيئاً فشيئاً ـ ثم استدارت إلى اليسار من جديد لتصعد جسر الحديد الصغير ومنه إلى حديقة الجامع الجرداء. مع عودتها أعادت تحريك مياه البركة الساكنة. كانت قد ألقت بمرورها الصباحي حجراً لم تنقطع أصداء سقوطه حتى عودتها. لكن حجر العودة كان أمضى في سقوطه على سطح البركة. كان له صوت سُمع في أقصى بيوت العمّال. إنه النداء الذي نبّه أبناء المجموعة الأولى. بلحاهم القصيرة ونظراتهم الزائغة. سحبهم مثل خيوط صوف منسولة من شؤونهم اليومية ملقياً بهم في حديقة الجامع. ركب كل منهم دراجته الهوائية مندفعاً على الشوارع النظيفة. كانوا يمرّون في طريقهم بأبناء المجموعة الثانية. مجموعة فلم الظهيرة العربي. وقد اعتادوا التمشي مستمتعين بتغيّر الهواء. اعتادوا الجلوس في مثل هذا الوقت من كل

عصر على مصاطب الخشب في الحدائق العامة. يستعيدون صور العشاق المغامرين بقمصانهم القصيرة الأكمام والمعشوقات المعذبات. في ذلك اليوم بالتحديد كان ياسين يحمل كاميرا البولورايد الفورية. كاميرا عجيبة تلتقط وتحمّض في وقت واحد.

ـ جك والصورة بين يديك.

كان يصيح والكاميرا تتدلى من عنقه كما لو كان يربط العالم بحزام حول رقبته. حزام نسيج أزرق بحروف انكليزية بيضاء يلتف على رقبته مثل العلماء الأجانب في برنامج عالم الحيوان. في حديقة بيت يوسف التقطنا أول صورة لكيكي وهو يتكوّم بين يدي صفاء.

ـ سنعلّقها في نشرة العلوم بعد أن نكتب شيئاً عن الكلب القافز. نكتب تحتها كيكي بين يدي الملاك.

وضع ياسين الصورة في جيب قميصه متسائلاً:

ـ عن أي ملاك تتحدّث؟

ـ ملاك الشمع ذابل العينين.

فتح فمه مستغرباً للجملة التي نطقتها كما أنطق التعليقات المطبوعة تحت صور عبد الحليم.

ـ أي ملاك هذا الذي يعيش في بيوت العمّال!

تساءل وهو يخرج رأسه من حزام الكاميرا ويسلّمها لي. توجهنا إلى حديقة المعقل.

ـ سأصعد على الشجرة. أريد صورة جميلة. أجمل صورة لقرد يتدلى على الشجرة.

لم يصعد عالياً. كان يخشى ألا تبدو ملامحه بوضوح. أمسك غصن الصفصاف بيد وترك الأخرى تلوح في الهواء. قرّبت العدسة من عيني. كان المشهد أمامي رائقاً. تصغّره العدسة فتبدو أشياؤه أبعد مما هي عليه. تقرّبه فأضحك لملامح ياسين المنتفخة. رفع قدميه مثل قرد فرح وصاح:

ـ هيا.

ضغطة رقيقة على الزر انسابت بعدها الصورة. قرد الصورة يلوّح فرحاً. ما إن اتضحت الصورة بين أيدينا حتى غادرت نظراتنا القرد ـ بصورة الملاك وهو يحمل كيكي التي بان طرفها من جيب قميصه المخطط ـ لتستقر على جموع راكبي الدرّاجات وهم ينشرون خلفية بشريّة بملامح مضبّبة تخطف من خلف أعمدة السياج. لم نكن قد رأينا هذا العدد من الملتحين يندفعون في شوارع المعقل. تحت أضواء أعمدتها الصفراء. وصولاً لحديقة الجامع القديم. وكما لو كانوا في صلاة جمعة. أوقفوا دراجاتهم في صف مائل طويل وجلسوا على تراب الحديقة. على عشبها الأصفر القليل. كان عددهم أكبر من أن يسمح لهم بالدخول. فتح الإمام نافذة غرفة المضافة المطلّة على الحديقة. رأى الجموع تنهض مع أذان المغرب. صفاً بعد آخر تتوجّه لحمّام الجامع. للوضوء قبل صلاة المغرب. كثير منهم سيكذّب الخبر. رافضاً فكرة أن يفتح الإمام النافذة ليطلّ. مؤكدين أنه رآهم فور دخوله الغرفة. التفت إلى الجدار الأبيض الصقيل. رفع نظره إلى ساعة الجدار. عقاربها تدور حول بيت الله الحرام بستارته السوداء مذهّبة الحروف. تمتم قليلاً ثم خفض نظره. كان الجدار لحظتها قد أخذ يتلاشى. يغيب من أمام نظراته ليرى الجموع تنظر بعيون مفتوحة جامدة. قلّة منهم ستؤكد أنه رفع يداً منحنية الأصابع.

راحتها بيضاء شعّت عبر الجدار المفتوح. والندرة من بينهم ستُخفي أنها سمعت صوته. بعد أن أخذ أفرادها يردّدون اسمه مع أنفسهم. يردّدونه مثل تعويذة بتركيبه الغريب على مسامعهم. يُحسونه يشقُّ صدورهم ويصعد مثل شعاع إلى السماوات. يعبرها سماءً بعد سماء. يده تلوّح والشعاع المهيب يصعد. كان يردّد بصوت أقرب إلى الهمس:

ـ سلام على قوم مؤمنين.

مرتين متتاليتين.

ينغلق بعدها الجدار.

اليد نفسها سنراها مرفوعةً بعد أكثر من عام تلوّح للجموع التي رفعت أيديها. نراه يطل من النافذة التي تبدو معتمة خلفه. كثيفة السواد. بيده اليسرى يُمسك عباءته الملتفة على جسده. إلى جانبه في مقدمة النافذة وقف أكثر من مدني شاب بشعر مشعث طويل ولحية نابتة. كانوا يرتدون جاكيتات عسكرية بياقات مرفوعة. عيونهم قلقة وأيديهم مشغولة. يده اليمنى تحيّي الجموع التي توافدت على طهران مع أول خيوط الفجر متوجهة لبهارستان عبر شوارع فسيحة مشجّرة. جموع من رجال يرتدون ستراً أو جاكيتات صوف. بعضهم كان يضع طاقيات صغيرة أو قبعات. نساء محجبات بعباءات سود أو جادرات منقوشة. شيوخ وأطفال. جموع تمضي نحو حديقة مدرسة علوي الثانية ولن تتركها إلا بعد انتصاف النهار لإفساح المجال أمام آخرين يرغبون برؤيته. كان الإمام منهمكاً في الحديث على غلاف المجلة الكويتية. فوقه عُلّقت لافتة بيضاء لم تبد من كلماتها غير كلمة واحدة مكتوبة

بخط فارسي رشيق أربكه الهواء. قرآن. على الجانب الأيسر أعلى الغلاف صورة صغيرة له مطأطئ الرأس مغمض العينين. كأنه في حالة من الانقطاع. يُنصت لصوت خفيض. صوت داخلي لا يسمعه سواه. «**اليقظة» مع الإمام**. فوق الصورة التي أطلَّ فيها من النافذة مانشيت ينقل جانباً من حديثه عن الشاه. **الشاه الذي هرب بالأموال مخلّفاً مملكة خربة متلاشية**. إلى جانب النافذة تشبّث طفل بالجدار. يده الطليقة ممدودة نحو الإمام في رجاء. **حتى الأطفال سعوا إلى لمس يده**. ذلك ما كتبته المجلة. تحت الصورة مباشرة. مثلما كتبت تحت صورة قريبة. **معمّم مسلّح من مليشيا الإمام**. رجل دين فتي يدفع عمامته البيضاء إلى قمة رأسه. شعره يلمع على جبهته العالية. ينظر بعينين شبه مفتوحتين إلى جانب الكاميرا. يده اليمنى تُمسك قبضة سلاح أمريكي لامع السواد. رشيق وطويل. يميل على كتفه. ويسراه تلملم عباءته المكوّرة.

في اللحظة التي التقطتُ فيها صورة القرد وقد أمسك غصن الصفصاف بيد وترك الأخرى تلوح في الهواء. تمنيت أن أستعيد وجوه أناس المعقل. بكاميرا البولورايد

لكل وجه صورة

ولكل حكاية

وكل حلم

أعرف أن الصور تكذب. وأنها أبداً لن تكون الوجه والحكاية والحلم. وأن صفاء في الصورة لم يكن أبداً صفاء. كان ملاكاً من الشمع ذابل العينين. ملاكاً محبوساً في إطار النافذة بخضرته المنهكة. يراقب العالم يجري مثل نهر

المعقل من أمام نافذته. ويفرح لبريق أمواجه. تمنيتُ أن التقط صورة من بعيد لخالي بدشداشته وهو يمشي مخطوف البال متمهّلاً على الكورنيش. أضعها إلى جوار صورته بالسدارة. أمامها في دفتر الصور. لن يعرف ياسين أبداً أياً منهما ستكون صورة الحلم. ففي الأحلام أيضاً يلبس الناس السدارة ويمشون بالدشاديش على الكورنيش. بالهم مخطوف وخطواتهم متمهلة. سألتقط صورة للشاب الإيراني الذي جاء بصحبته. بسترته الزرقاء المقلّمة كأنه أحد أفراد فرقة الإنشاد العراقية. أحتفظ بها طويلاً. إلى ما بعد مجيء الإمام و سقوط القذيفة. صورة لأبي يحدّثنا عن رؤية عبد الكريم قاسم في مجيئه إلى المعقل. وهو يرفع يده نحوه من خلف زجاج نافذة سيارته. يحيّيه وسط حشود العمّال المتدافعة على الرصيف. صورة للحاج حميد وقد وقف إلى جانبه بانتظار نداء الزعيم. ربما التقطُ صورة للحاج في لحظته الذهبية إلى جوار إيطالية رأس السنة. سأفكّر ملياً بالزاوية المناسبة لالتقاطها. زاوية تجمعهما معاً. على الرصيف وهو يقف أمامها. يداري ارتباكاً لا يكاد يبين. عباءته ما تزال على كتفه. أو على السُلّم وهما يصعدان معاً وقد أمسك يدها ولفّ عباءته على جسدها الفتي. أو على سطح السفينة. أعمل على أن أجعل اسم السفينة يبين في الصورة بحروفه الانكليزية. إنه يمنح اسماً للإيطالية التي لم يُعرف اسمها. لم يسأل عنه أحد ولم يعبأ به. فينيسيا. ياله من اسم يجمع ظلالاً هائمة لسفينة ومدينة وامرأة ساحرة. يوحّدها في لحظة ضوء لا تنسى على رصيف ميناء المعقل. صورة أخرى لوجه جدتي. في اللحظة التي اقتربت فيها من أمي وهي تستمع لها تحكي الحلم. الحلم الذي صار حلمها. أمي تحكي وجدتي تستمع وخالي يسير. لن يُدرك ياسين إن كانت صورة

خالي وهو يسير على الكورنيش هي صورة الحلم. لم أحدّثه عنها. لم أحدّثه عن الكلاب.

ـ الصور تكذب.

قلت له يوماً. بقي واقفاً أمامي. عيناه تلمعان. كان يفكر بصور المجلات. بالأجساد التي بلبلته طويلاً وهي تبدّل أوضاعها. تكذب هي الأخرى. في كل مرة ترى نساءها في شكل وفي حال. يفكّر بالايطالية الفاتنة وقد نزلت عارية إلى رصيف الميناء. ترفع قنينة الويسكي الفارغة وتغنّي. يفكّر بصور عبد الحليم. عبد الحليم الذي تمنيت أن ألتقط صورة له وهو يسير وحيداً في شوارع المعقل كما لو كان يعرفها شارعاً شارعاً. الشوارع التي كان يقطعها كيورك أبو غازي في طريقه إلى نادي الأرمن وهو يدوزن أيامه. في اللحظة التي مرّ الحاج حميد إلى جواره. سأدع عبد الحليم يدوزن أيامه بعيداً عن أكوام الأدوية على المنضدة الصغيرة. في غرفته في الفندق. في صورته المنشورة بعد عودته الأخيرة من لندن في الثلاثين من آذار 1977. يسير في الطريق إلى ملعب الميناء الرياضي. حيث نصبت شركة الموانئ له مسرحاً كبيراً. وقد احتشدت جماهير المعقل منذ وقت بانتظاره. سأبحث بين الوجوه عن وجه كيورك أبو غازي. ابتسم عبد الحليم حينما حدّثه عن رغبته بالحضور إلى الحفل مع العائلة. أسمع صوته يتردد كلما أغمضت عينيّ. أسمع الفرقة الماسية. وأرى عيني أحمد فؤاد حسن تترقبان اللحن. ترصدان سُلّمه الصاعد إلى سماء المعقل.

النذرة التي سمعت الإمام يردد بصوت أقرب إلى الهمس. هي الجماعة

التي اعتادت أن ترى حياتها في مرآة. تقف في أقصى طريق رملي حيث تلوح أشباح بعيدة عابرة بعباءات وعمائم. أشباح بالأبيض والأسود. تخطف من دون أن تقف أو تلتفت. لكنهم مع وصول الإمام عرفوا ـ بما يشبه السحر السماوي ـ إنه وقت الالتفات. وقت الوقوف البليغ والتمتمة العميقة المبشرة. اللحظة التي ستمضي بهم إلى عوالم بعيدة. أبعد من حديقة الجامع الجرداء. أبعد من سمائه المقشّرة. لتمنحهم هواءً جديداً ملؤه الحكمة واليقين. هم وحدهم من قُدّر لهم أن يُنصتوا للصوت الهامس العميق. أن يعيشوا كلمته قبل أن ينغلق الجدار.

بينما كانت جموع الدرّاجين تندفع على شوارع المعقل النظيفة من أقصى بيوت العمّال حتى حديقة الجامع الجرداء. كانت درّاجة سعود تسير باتجاه معاكس. مثل قشة في نهر. تجاهد للمرور من بين جموع راكبي الدرّاجات وقد تركت النهر والجامع ومحطة القطار وراءها. كان سعود يندفع بدرّاجته وهو ينظر لوجوه المارّة من حوله. وجوه بلا ملامح. وجوه بلا ملامح. ذلك ما كرّره مع نفسه وهو يرى الوجوه بعيونها المفتوحة المستثارة. يرى اللحى القصيرة المتشابهة. كانت الوجوه تنزلق على جانبيه مأخوذة بنداء بعيد. نداء لا يكاد يُسمع. غطّى عليه رنين جرس صفاء الذي لم يعد يدقّ متلذذاً بالرنّات القوية وأصدائها المعدنية الطويلة بقدر ما كان الخوف يحرّك أصابعه. خوف تصاعدت له نبضات قلبه وأحسَّ ضيقاً في تنفسه. مع مرور الدرّاجات كانت الوجوه تتشابه حتى تصوّرها سعود وجهاً واحداً يتناسخ على أجساد

كثيرة. لم يخطر في باله أن مشهد الدرّاجات براكبيها زائغي النظرات مشهد حقيقي. لم يتصوّر راكبيها بلحاهم القصيرة وعيونهم المفتوحة أناساً من لحم ودم. كانت اللحظة نفسها تتراءى له لوثةً أخرى من لوثات هدية كومار وقد عبثت به طوال النهار.

كان عمّال المسفن على موعد مع إحدى سفن شركة الهند الوطنية في الصباح الذي خطفت فيه سيارات اللاند كروز من جانبهم. مع كل اندفاعة لدرّاجاتهم في غيمة الرائحة كانت أرباع الزحلاوي تطقطق في جيوبهم الواسعة. الأرباع المفضّلة لدى عمّال السفن لأكثر من سبب: قوة عرقها برائحة الحبّة الحلوة المدوّخة وحجم قنينتها القصير الذي يمكّنهم من وضعها في أي جيب من جيوب بدلة العمل واسمها الذي يهتفون به متلذذين من على سطوح سفنهم حال دخولها الميناء. ناهيك عن سعرها المناسب كأنها لم تصنع إلا من أجل عمّال السفن. في المساء الماضي ضحك أبو جورج وقد إلتمع أنفه الطويل تحت ضوء الفلورسنت وهو يؤكد لسعود للمرة الألف بأن لا شيء يوحّد عمّال العالم مثل العرق. أبو جورج الذي كان واحداً من أشهر باعة الخمور في شارع الوطن أُجبر على أن يغلق مخزنه المجاور لبار الشعب بعد الاستدعاءات المتتالية من قبل مديرية أمن العشار والفرار بروحه العزيزة إلى المعقل. علّق لوحة صغيرة على مخزنه الجديد وقد حذف منها الجملة التي يُحب. لصاحبه أبو جورج. فضّل أن يختبئ خلف كلمات قليلة مكتفياً بمخزن السنبلة للمشروبات الروحية. كان الستار قد أُسدل على الجبهة الوطنية معلناً

انقضاء موسم العسل بين حزب البعث والحزب الشيوعي العراقي. وعاود البعثيون التهام لحم رفاق الجبهة. مشوياً ونيئاً.

اقترب سعود من منضدة المخزن ليقول:

ـ ها أنت تحقق ما لم يقدر ماركس بجلالة قدره على تحقيقه.

صاح أبو جورج:

ـ أخوّة العرق هي الشعار الأممي الجديد!

متمنياً أن يسمعه ضبّاط أمن العشار ليصدّقوا أن لا شأن له. لا من قريب ولا من بعيد. بشيوعيي شارع الوطن. وأن الكومونة الوحيدة التي يؤمن بها هي كومونة المشروبات الروحية. وليعرفوا أن ما أكله على أيديهم من شتائم وركلات لم يكن إلا غلطاً في العنوان. وضع الأرباع القصيرة على المنضدة وهاهي تُثقل جيوب سعود. بعد أن أنزل فيها عدداً من المفكات مختلفة الأحجام وحشرها بقطع قماش مدهّنة. اندفع على سُلّم الحديد الطويل صاعداً إلى السفينة. متطلّعاً للحروف الانكليزية المنفصلة أعلى جانبها وهي تشكّل اسمها الغريب (موبي ديك). وقد سبقه إلى سطحها العديد من عمّال المسفن وفنييه. وقفوا مع مجموعات من طاقم السفينة وعمّالها. تحت برج المراقبة بقمرته ذات النوافذ الزجاجيّة المربّعة الواسعة. قريباً من الخزّانات. خلفهم تلوح المدخنة شاهقة في أقصى السفينة. تصعد باستدارتها العريضة. أعلام كثيرة ترفرف في سماء السطح. أعلام صغيرة مثلثة بألوان مبهجة. وحبال غليظة على أرضه. ملتفة وممدودة. توجّه مباشرة إلى باب السفينة. بخطوات سريعة نزل على سُلّمها الضيّق. إلى الباحة المفتوحة على ممر جدرانه مغلّفة بألواح من خشب الفورمايكا بيضاء اللون وأرضيته مفروشة بقطع خزف

صغيرة مشطّبة. تنزل من سقفه مصابيح دائرية عريضة بأغطية زجاجية. على جانبيه أبواب خشب قاتمة اللون. أبواب تُفتح وأخرى تُسد. رجال يصعدون وآخرون ينزلون. عراقيون ببدلات عمل زرقاء وهنود بثياب شركة الهند الرمادية ذات الأزرار النحاسية المزيّنة بختم المرساة. على حواف الجيوب العلوية العريضة لقمصانهم طُرّزت ثلاثة أحرف انكليزية على أرضية بيضاء. كان الممر ضاجاً. استدار نحو ممر الحمّامات الطويل. وأكمل خطواته باتجاه باب غرفة المحرّكات المفتوح. كلما اقترب منه ارتفعت حرارة الممر وازدادت رائحة الزيوت نفاذاً. قبل أن يصل إلى الباب رأى خوذة سوداء ترتفع من بئر السلم. تبدو حدبتها مثل نصف كرة معدنية محلّقة. ثم رأى وجه كومار وهو يصعد على سُلّم غرفة المحرّكات. وقف بطوله الفارع في باب الغرفة التي ما تزال حرارتها تُثقل الجو. يكاد يسد الباب. خوذته محكمة على رأسه. وعلى جانبي لحيته تدلّت ضفيرتان رفيعتان. أزرار قميصه تلمع في ضوء الممر. خلع بيده اليسرى قفازه الأيمن المدهّن. عاد مع كومار إلى الممر. فتح أحد الأبواب الجانبية ودخل مرحّباً. فور دخوله تخفف سعود من أرباع العرق. أخرجها من جيوب بدلته ووضعها في كيس ورق ثخين ترابي اللون كان موضوعاً على الطاولة. قريباً من مصباح القراءة المطفأ بذراعه المحلزن الرشيق. نظر إلى الغرفة التي دخلها مرات من قبل. كانت صغيرة تغرق في الضوء. مصباح سقفها الواطئ مضاء ونافذتها مفتوحة. تتوسطها منضدة مستطيلة قاعدتها معدنية مثبتة على الأرض وسطحها خشب أصفر اللون تتخلله عروق بنيّة واضحة. على جدار الغرفة المقابل للباب سرير حديد بطابقين. لكل منهما ستارة قصيرة قماشها مشطّب ثخين مثل أقمشة المظلات

الساحلية. إلى جوار السرير مغسلة على حافتها كأس وضعت داخلها أنبوبة معجون وفرشتا أسنان. تعلو المغسلة مرآة مستطيلة مضبّبة. النافذة المستديرة مفتوحة على الجدار المقابل للمرآة. درفتها الزجاج مسحوبة إلى الداخل. في المرآة رأى سعود رجالاً يتحرّكون على السطح في أقصى السفينة. تحت مدخنتها العريضة الشاهقة. سمع أصواتهم واطئة متقطّعة مثل استغاثات بعيدة. إلتفت إلى كومار. كان رأسه قريباً من سقف الغرفة. لمّة شعره المعقود في كعكة تلمس شبكة المصباح أو تكاد. سحب ستارة السرير الأرضي وجلس على حافته. كان يحدّثه عن الرحلة. وعن الزوارق الإيرانية الصغيرة التي صادفتهم حال دخولهم الخليج. زوارق كثيرة. أكثر من كل مرّة. يحرّك رأسه فيهتز شعره الطويل الملموم أعلى رأسه وتتلاعب ضفيرتاه النازلتان على جانبي لحيته. كان قد خلع خوذته ووضعها أمامه على المنضدة إلى جوار قفازيه.

ـ تصورناها أول الأمر زوارق صيادين بأضوائها القويّة المتحرّكة لكننا تبيّنا أعلامها مع ضوء الفجر. ورأينا الأسلحة الأميريكية الخفيفة بأيدي رجالها.

هكذا فهم سعود من كلامه السريع وهو يحدّثه بلغة غريبة. خليط من لغات هنديّة وانكليزيّة وعربيّة. كلمة من هنا وأخرى من هناك. حمل كيس قناني العرق ونهض متوجهاً إلى دولاب على جانب السرير. بابه القصير مقفل على فتحة في جدار الغرفة. فتحه ووضع الكيس على الرف الأسفل وأخرج حقيبة نايلون بُنيّة بذراعين عريضتين. وضعها أمام سعود على المنضدة.

ـ No. No. No.

رفض سعود فور رؤيته الحقيبة وهو يلوّح بيده.

ـ بابا هازا هدية .

ابتسم سعود مدارياً خجله فسحب كومار الحقيبة وألقاها في حجره وهو يقول:

ـ أنتي ما تعرفين شنو هدية. هازا هدية من بحرين.

It is a present.

أضاف بانكليزية صافية.

لم يكن سعود يرفض أو يحتج. كان في كل مرّة يتسلّم كيساً من كومار أو من سواه. يتحسّس المجلات داخله ثم يُنزله على الفور تحت بدلته. لكن شيئاً محدّباً داخل الحقيبة دفعه ما إن رآه بين يدي كومار للرفض والاعتراض. المجلات وحدها كافية لكن كومار أراد أن يذهب بعيداً. مجلة وكاميرا. كأنه يُدرك أن اللذة لا تكون بأن تفتح مجلة خلاعية. على أكثر صورها إثارة. وتفعل مثلما يفعلون.

ـ لا بابا لا.

ذلك ما يتصوّر سعود أن كومار سيقوله.

ـ بابا فَك أند فوتو.

ثلاثة أشياء تملأ حياة سعود وتشغل تفكيره. قنينة العرق وأخوه صفاء وكريمة. أرملة المعقل القديم. وإذا شئنا ترتيبها حسب الأهمية سيكون صفاء أولها بوجهه الذابل. ثم كريمة بسمارها الباهر وحاجبيها المزججين بعناية مثل

هلالين رفيعين فوق عينين عسليتين وشعرها الأسود الطويل. وثالثها قنينة العرق مستكياً كان أو زحلاوياً. ولم يزحمها شيء رابع. معها تبدو له الدنيا مثل منظر خلفي بعيد. منظر مكمّل لم يشغل نفسه بتفاصيله كثيراً. ضربات فرشاة سريعة لأشياء لا تبين على نحو واضح. لا مسفن ولا سفينة ولا جامع ولا فلم. كان يفكّر أنه في وجوده الذي خبطته العاصفة لا يملك ما هو أقرب إليه منها. بقيت الأشياء الثلاثة كما هي منذ ولد صفاء بكريات الدم الحمراء المتكسرة. كلما حمله ليجلسه على كتفيه ويدور به في المنزل. قدماه تتدليان على جانبي رقبته. يسمع طقطقة الكريات المتكسّرة. مثل فقاعات تنفقئ وسط ضحكاته العليلة. كان سعود بالنسبة لصفاء سعادة مجسّدة بكتفيه العريضتين وشعره الخشن الكثيف لامع السواد. بينما لم يكن صفاء بالنسبة لسعود غير قطرة مصفاة من الألم. كان يدفن رأسه في صدر كريمة ويبكي. يبكي بحرقة وقد تخفّف من فورة جسده وتمدّد على السرير فأعادت غيوم العرق إلى رأسه صورة أخيه. الأشياء الثلاثة تمتزج معاً. مثل أصباغ تختلط. تتداخل مع بعضها وتذوب. تمتزج في شعور واحد عميق يُثقل صدره ويصعد إلى رأسه. صورة أخيه بجسده الضئيل ينام على سرير واسع في ردهة الأطفال بمستشفى الموانئ والإبرة تخترق ذراعه. ذراعه المزرقّة في أكثر من موضع. يضرب المضمّد على اليد العظميّة ضربات خفيفة بأطراف أصابعه ثم يزرق الإبرة. يحرّكها أسفل الجلد ويسحبها ليضرب من جديد.

ـ ماكو وريد.

يقول وهو يتحسّس بإبهامه القصير ذراع صفاء الذي لم يكن يتألم. يده ممدودة وعيناه مفتوحتان تنظران لكيس الدم المعلّق إلى جانب السرير وقد غام بياضهما. ما كان يؤلم سعود هو تسليم أخيه ليد المضمّد تضرب

وتزرق وتسحب الدم من يده دونما ألم أو اهتمام كأنها يد غريبة. يراه أمامه كلما أغمض عينيه صامتاً بملامحه المجهدة. يتمنى أن يسمع صوته يعترض أو يتألم أو يحتج. أن يراه يسحب يده من يد المضمّد وينهض عن السرير. لكنه ظل ينظر بلا صوت لكيس الدم بانتظار اللحظة التي يُغمض سعود فيها عينيه. إنهم يجتمعون سوية: صفاء وكريمة وقنينة العرق. في لحظة يشعر لكزاتها الموجعة في خاصرته فيدفن وجهه. تختلط في رأسه الروائح. رائحة عرق الأنثى ورائحة فمه ورائحة الغرفة التي تحرص كريمة على تبخيرها كل مساء.

لم يكمل طريقه نحو جنّة المعقل القديم. استدار عائداً إلى الحديقة. صعد الرصيف ونزل عن دراجته في حديقة المنزل. حمل الدراجة بحركة رشيقة ليسندها إلى الجدار. كان كيكي ما يزال متكوّراً على نفسه. ملموماً تحت الشُبّاك. سلسلته مربوطة إلى النافذة. كان قد نبح على النافذة. أطلق نداءه بانتظار عيني الملاك. حمله سعود مستغرباً لخفّته ثم دفع ظلفة النافذة. كان صفاء يقف خلفها مثل ملاك من الشمع.

ـ إنه كيكي. هدية الأولاد لك.

قال.

فتح ملاك الشمع كفيّه وقد كوّرهما كما لو كان سيحمل عصفوراً. أنزل سعود كيكي بين يديه ثم رجع إلى الخلف ونظر لهما. فكرة سريعة أضاءت في ذهنه دعته للابتسام قبل أن يدخل إلى المنزل وقد بقينا واقفين. ياسين وأنا انقضى مهرجاننا فلبثنا صامتين. صفاء بصفرة وجهه الباهتة ينظر إلى كيكي.

الملاك المحصور في إطار النافذة بطلائه المقشّر منهك الخضرة ينظر إلى كيكي وقد نزل الشعر على جسمه وغطى عينيه. خرج سعود حاملاً حقيبة نايلون بُنيّة بذراعين عريضتين. أعطاها لياسين وقال:

ـ إنها لكما.

فتح ياسين الحقيبة. سحب حزاماً أزرق بحروف انكليزية بيضاء. أفلت الحقيبة وبقيت كاميرا البولورايد بين يديه. تبرق في الشمس.

ـ التقطا لهما صورة.

قال.

ـ ضغطة زر واتركا الباقي على الكاميرا.

قرّب ياسين الكاميرا من عينيه. عدّل وضعية عدستها وطق التقط صورة للملاك الواقف خلف النافذة. ملاك الشمع ذابل العينين وقد تكوّم كيكي على يديه. سحب سعود دراجته. ثبّت قدمه على الدوّاسة ثم قفز رافعاً جسده إلى الأعلى.

ـ الصورة. ألن ترى الصورة؟

صاح ياسين متسائلاً فأجابه:

ـ إنها لكما. خذاها مع الكاميرا.

وباندفاعة سريعة نزل عن الرصيف.

هل يمكن لكومة صوف أن تبصر الملاك؟

تلتقط رائحته وتسمع رفيف جناحيه؟

بخطى راجفة تعبر المفازة البعيدة المهلكة. تتكوّر على نفسها. لن يكون

كيكي لحظتها حيوان البهجة بأذنيه المتدليتين وسيقانه القصيرة اللاهية. حيوان القفزة السعيدة الباهرة وقد التقط الصافرة وحلّق في فضاء السوق المزدحم برفيف الأجنحة المقيّدة. حيوان الغيمة التي طارت في سماء البصرة. نبتت لها أجنحة من صوف. أجنحة من قطن ثلجي. وطارت كما تطير الغيوم من نافذة الباص.

إنه يسحب أطرافه ويلملم أذنيه ويتكوّر مختبئاً في نفسه.

يرى الملاك وينوص بصوت جارح حزين.

كانت أمي تتحدّث ببطء على غير عادتها. كلماتها تخرج رفيعة متقطعة كأنها كُتبت على لسانها بقلم رصاص مبري.

ـ وحده الكلب من يرى الملاك!

لم تكن تتحدث عن الكلاب التي لحقت خالي في حلم الضفة البعيد. حلم الضفة الذي أفزعها. كانت تحدّثني عن كيكي. بعد أن تركناه بين يدي صفاء.

ـ هل سمعت عن حيوان يشمُّ الموت؟

أفزعني سؤالها وعصر أمعائي. كان الألم يتسع حتى يملأ بطني. لم أفكر أن للموت رائحة من قبل.

كانت تنظر بعيداً كأنها تفكّر بما قالت. كأنها تفكّر بما تريد أن تقول.

ـ قبل ساعات من نزول الملاك وصعود الروح يشمّ الرائحة فيهلكه الحزن. حزن لا يعرفه إلا بني آدم.

كان صوتها يخفت حتى أصبح مع كلماتها الأخيرة أقرب إلى الهمس.

أتصوّر كيكي وقد شمّ الرائحة في حديقة بيت يوسف وأهلكه الحزن. في الغرفة أنظر إلى الصورة كأني أراها لأول مرّة. صورة كيكي بين يدي ملاك الشمع ذابل العينين. أدسُّها بين أوراق الدفتر وأخرج متوجهاً إلى السُلّم. تتبعني الرائحة مثل ظل موحش و يلاحقني الرفيف.

مع نزول سعود عن الرصيف. مع نزول كيكي بين يدي صفاء. عاودت المجلات نزولها بين أيدينا. مجلات جديدة لم تُلمس من قبل. صر مهر. أتصفّحها فأسمع لصفحاتها شحطة مثل شحطة كيس النايلون وأتشمم رائحتها. باهرة مدوّخة. تبرق بألوانها الفاتنة وجواهر نسائها. الحليقات منهن والشعراوات. كان يأتي في المساء. يدقُّ الباب دقات خفيضة متوالية فأعرف أنه هو. ساعي البريد الذي لا يُرى. أفتح الباب على مهل ودونما صوت أتوجّه نحو سياج الحديقة. أرى الكيس معلّقاً على سياج الخشب. أراه على جذع النخلة العالية. أرفعه عن السياج. أرفعه عن الجذع لأضعه تحت القميص.

كان قلبي ينبض.

نبضه يتصاعد.

يدقُّ في رأسي مثل طبل العيد مع ضباب الأجساد المدهونة بالعسل.

الحجر الذي سقط في البركة مع دخول سيارات اللاندكروز الثلاث لم يحرّك راكبي الدراجات وحدهم. لم تتبدّد أصداء سقوطه على الإسفلت.

أمواج البركة المتلاطمة وقد وصلت ذروتها مع عودة السيارات واستقرارها في حديقة الجامع الجرداء. زحفت على الشوارع النظيفة عابرة الحدائق وشبكة الأنهار. مخترقة مستشفى الموانئ ومحطة القطار ودور السكك الضيّقة بغرفها الصغيرة المقببة لتلمس عصب الأمان النابض خلف جدرانها قبل أن تطرق بقبضاتها المائية القوية أبواب مديرية أمن المعقل. المديرية التي وصلتها برقيّة حال خروج الإمام من النجف ممهورة بعاجل وسري وعلى الفور للحيطة وأخذ التدبيرات اللازمة. ولم تكن التدبيرات اللازمة غير توزيع مرتادي الجامع من راكبي الدراجات على ثلاثة أقسام: القسم العام الذي بقي حتى الصباح في حديقة الجامع ولم يُقيّض لأفراده أن يسمعوا صوت الإمام ولو همساً. لم يُقيّض لهم أن يروه ولو بالحلم. وقد أخذتهم الغفوة لحظات شخروا فيها وسقطت رؤوسهم على صدورهم. وهو القسم الذي تميّزه كثرة الأسماء الواردة في قوائمه. والقسم الثاني هو القسم الخاص ـ بحسب قوائم المديرية المطبوعة في ست نسخ على الآلة الكاتبة ـ الذي رأى الجدار ينزاح. يغيب أو يتلاشى. ورأى الإمام يرفع يده. راحتها بيضاء تشعّ عبر الجدار المفتوح. أما القسم الثالث فهو القسم الذي طُبعت أسماءُ أفراده بقائمة منفردة كتُبت في منتصفها من الأعلى كلمتان تحتهما خط قصير. القسم الخطر. وهو القسم الذي ضمَّ أسماء قليلة بالمقارنة مع القسمين السابقين. أسماء الندرة التي لم يرفّ لها جفن طيلة الليلة التي قضاها الإمام في الجامع. لقد ظلَّ أبناء القسم الأخير مفتوحي الأعين بعد أن رأوا الجدار ينزاح واليد ترتفع. رأوا شعاعها يملأ الحديقة وسمعوا السلام. لذلك من الطبيعي أن يبدأ عمل ضبّاط المديرية من أعلى سُلّم الأمن. من ذروته. من قمّته الدقيقة المدببة. للأمر تدبيراته. فما أن تحرّكت سيارات اللاندكروز في وجهتها الأخيرة نحو شارع بغداد. منطلقة

إلى مطارها. حيث سيحلّق الإمام إلى فرنسا في السادس من تشرين الأول عام 1978. وانحلّ جمع الحديقة وقد عاد كل على دراجته. يهيمون في ضوء النهار الباهر. كل منهم يُحسُّ نفسه قد تخلّص من أعبائه وحلّق مثل ريشة خفيفة بيضاء. حتى وجد أبناء القسم الخطر عناصر الأمن بانتظارهم في منازلهم. ضبّاطاً أنيقين ومراتب ببدلاتهم السفاري وشواربهم الثخينة يتوزعون صامتين في غرف الاستقبال وقد جلس الضبّاط منهم واضعين ساقاً على ساق وأخذوا يدخّنون ويشربون الشاي مثل ضيوف أعزاء. سيقول يوسف بعد ذلك بزمن طويل. بعد أن تنشر الجريدة الصورة وتكتب التعليق. بأنهم ألقوا القبض على سعود. دفعوا الباب بعنف ودخلوا. كانوا يعرفون بأنه خارج المنزل. توجهوا مباشرة إلى غرفة الضيوف وجلسوا يدخّنون. لكن صفاء يعلم بأنهم لم يأتوا إلى المنزل. لم يطرقوا الباب ولم يدخلوا. فقد حلّ الليل عندما عاد سعود من جولة الدرّاجة مع أخيه وقد غادره خوفه وانقطع عن دقّ الجرس. أنزله أمام المنزل ووضع المسند بين يديه. بقي مستنداً بقدمه إلى الرصيف حتى دخل صفاء إلى المنزل فدفع درّاجته متوجهاً إلى المعقل القديم. رجع راكبو الدرّاجات في الصباح بعد أن قضوا الليل في حديقة الجامع ولم يرجع سعود. ظل نائماً في سرير كريمة حتى ضحى اليوم التالي. يتقلّب على قماش شرشفه الستن الناعم المطرّز. رغباته مشبعة وجسده هادئ مستريح فوق نجوم القماش. في هواء الغرفة الذي يضوع بعطر المرأة وهمس روحها.

بعد مرور حوالي العام على إلقاء القبض على أفراد القسم الثالث. بالتحديد في الثاني عشر من نيسان عام 1979 وصلت برقية شبيهة بالأولى: عاجل

وسري وعلى الفور تطالب مديرية أمن المعقل مرة أخرى بأخذ التدبيرات اللازمة بعد ثلاث حوادث خطيرة وقعت على نحو متسارع في بغداد. كأنها ثلاث كرات ناريّة تتلاحق مرميّة في سماء العاصمة. في الأول من نيسان وصل طارق عزيز. نائب رئيس الجمهورية وعضو مجلس قيادة الثورة. إلى الجامعة المستنصرية لافتتاح الندوة الاقتصاديّة العالميّة. وبينما هو يصافح مستقبليه من قيادات الاتحاد الوطني لطلبة العراق اخترق الصفوف الطالب سمير نور علي وألقى قنبلتين. أُصيب طارق عزيز بكسر في ذراعه. واقتُلعت عين مرافقه. وقتل في الانفجار عدد من الحضور. وانتحر الشاب بإطلاق رصاصة في فمه. في الخامس منه هوجمت مسيرة تأبين قتلى المستنصرية. بعد يومين من خطاب تهديد ألقاه صدام حسين تحت المطر ـ ولم يمرّ على تسلمه منصب رئاسة الجمهورية غير وقت قصير ـ في المكان الذي شهد محاولة اغتيال نائبه في باحة الجامعة. وقد أقسم خلاله قسمه الشهير مؤكداً **أن الدماء التي سالت في المستنصرية لن تذهب سدىً**. وفي الحادي عشر منه هاجمت مجموعة أخرى سيارة وزير الإعلام. أطلق الوزير النار من مسدسه على أحد مهاجميه وأرداه قتيلاً. كانت البرقيّة تحمل لغة البرقيّة السابقة نفسها من دون أدنى تبدّل. كأن حوادث نيسان بهزاتها العنيفة المتسارعة لم تقع. أو كأنها وقعت في مكان آخر خلف المحيط. ولكن ضبّاط المديرية فهموا الأمر على نحو دقيق. فلا يمكن للبرقية أن تُفسر في أي حال خارج الحملة التي يخوضها البلد تحت الشعار الذي أطلقه السيد الرئيس: **إرسال الخمينيين إلى خمينيّهم**. وكان الخميني قد عاد إلى إيران من فرنسا قبل أربعة أشهر. بعد الحوادث المعروفة. ليُمسك زمام الحياة فيها بيده البيضاء. يده التي شعت في مساء جامع المعقل عبر

الجدار المفتوح. سيؤكد يوسف بصوت لا يكاد يُسمع. لا هو صوت البنت التي تنام في حنجرته ولا صوت معلّم التربية الدينية. أنهم اعتقلوا سعود خلال حملاتهم العاصفة التي لم يتركوا فيها بيتاً أو جامعاً أو مدرسة أو معملاً أو مستشفىً إلا وقلبوه على بطانته بحثاً عمن تبقّى من أفراد القسمين الخاص والعام. وقد تبخّر الكثير منهم في ظلمات مديريّة الأمن خلال العام المنصرم. فرادى وجماعات. كانوا يفتّشون حتى على من ألقي القبض عليه وحُوّل على عجل إلى سجن المديرية العامة أو نُسي في سجن المعقل أو مات تحت حفلات التعذيب.

ألقوا القبض عليه أمام بوابة المسفن. سيقول بعد صمت ليس بالقصير. كانوا ثلاثة يرتدون بدلات سفاري رصاصيّة متشابهة. شواربهم كثيفة تملأ وجوههم السمراء اللحيمة وتنزل على أطراف أفواههم. بعد أن عبر سعود البوابة اقترب منه أقصرهم. وجهه محروق السمرة. صلب ومخدّد مثل نواة الخوخ. خالطت سواد شاربه شعرات بيض. وضع يده على مقود الدرّاجة وسأله:

ـ أنت سعود حنش؟

كانوا يعرفونه عز المعرفة. لكنه سأله من باب الواجب ولم يسمح له أن يُجيب. اقترب الآخران على الفور. كتّفاه وسارا به إلى سيارة الشفر البيضاء. سار معهم من دون أن ينطق كلمة واحدة. كان مأخوذاً بالمفاجأة أكثر مما كان خائفاً. أصعداه إلى الخانة الخلفيّة وجلسا إلى جانبيه. وبقيت درّاجته مرمية

على الرصيف. لكن أبو جورج سيكذّب الخبر. أبو جورج صاحب مخزن السنبلة للمشروبات الروحية وهو يحكي عن واحدة من الليالي التي زاره فيها سعود على درّاجته. ليلة لا تنسى. كان يُجلس شاباً هندياً طويلاً أمامه. تكاد قدماه تحتكان بالشارع فيرفعهما محرّكاً رأسه تحت عمامته البرتقالية الكبيرة المحكمة. أوقف سعود الدراجة أمام المخزن ودخل قبل صاحبه. كان ينادي من باب المخزن:

ـ زحلاويّك أبو جورج.

نعم قال زحلاويّك أبو جورج. كان يُحب الزحلاوي أكثر من أي شئ. أكلّه عمّي هذا بلاك أصلي. هذا جوني تُحفة. ايگلّي خليني على الزحلاوي. عِشرة عُمر. ويضحك. والله سعود الذي لم يره أحد من أهل المعقل يضحك كان يضحك علو حسّه في مخزن السنبلة. في تلك الليلة التي عصف فيها رجال الأمن بالمعقل بقينا حتى وقت متأخر من الليل. كان كومار صاحب سعود الهندي يغنّي متمايلاً مثل أي هندي خفيف الظل وضفيرتاه تتلاعبان على جانبي لحيته المدهونة الممشطة. عيناه المكحّلتان تحدّقان في سقف المخزن بعد كل كاس يشربه جرعة واحدة كما يشرب الماء. العجيب أنه لم يخلع عمامته البرتقالية الثقيلة حتى في أقصى درجات السكر. بعد صمت قصير سأله سعود بلا مقدمات:

ـ فدوة كومار شنو سالفة موبي ديك.

لم يبد لي موبي ديك اسماً هنديّاً. ولم أكن أعرف أنه اسم السفينة التي جاء

عليها كومار. تصورته ماركة ذهبية لنوع نادر من الويسكي. ماركة برّاقة يمشي داخلها رجل رشيق يرتدي قبعة سوداء عالية وسترة أنيقة حمراء ويُمسك عصى قصيرة. رجل لا يكف عن المشي بخطواته الفتية وحذائه اللامع عالي الرقبة مثل خطوات جوني ووكر. لكن كومار أخذنا لحكاية أخرى ظلَّ يحكيها بهدوء متلذذاً بتفاصيلها. يلوّح بيده. يرفعها ويؤشر بأصابعه. كأنه يُشير لخارطة كبيرة أمامه. يرسم دائرة واسعة بسبابته المفرودة حول موقع الهند ومياهها. تعبر سبابته من خليج البنغال إلى بحر عُمان عبر خليج منار. ثم تُشير عالياً إلى الشمال. لبريطانيا العظمى وعرشها وأساطيل سفنها. مع كل حركة من يده كان سعود يرفع عينيه. ينظر إلى الخارطة. إلى المكان الذي يحدّده كومار وهو يتحدّث عن أنديرا غاندي وراجيف. الطيار الشاب راجيف غاندي بزيّه الرسمي قادماً لتوه من رحلة خارجية. ثم يتحدّث عن ملكة بريطانيا. لا لا لم يتحدّث عن ملكة واحدة. كانتا ملكتين. وعن رجل بريطاني اسمه صعب وطويل. يستحيل تذكره مع دوخة الزحلاوي. لفظه كومار كما لو كان يقرؤه من ورقة أمامه. كان يملك أسطولاً بحريّاً كبيراً. لكن جنونه بالبحر ومغامراته أكبر من أسطوله. مثل موبي ديك التي وقع فيها على ما يضاهي عشقه للبحر. بتفاصيلها الدقيقة الهائلة.

ـ موبي ديك كان حوتاً أبيض في واحدة من أعظم المغامرات وأكثرها قهراً وجنوناً.

قال كومار بين فاصلتي صمت قصيرتين. ثم واصل حديثه عن سفينة اسمها الباقوطة وقبطان مقطوع الساق اسمه أخاب. يا لغرابة الأسماء. ساق القبطان المقطوعة هي مصدر رغبته الحارقة في اصطياد موبي ديك والثأر منه. لم يكن كل ذلك مهماً بالنسبة لي. أنا أبو جورج صاحب مخزن السنبلة

للمشروبات الروحية. لا أسم السفينة ولا الحوت ولا عرش صاحبة الجلالة ولا أعلام الهند التي ترفرف ولا الأساطيل ولا المحيطات. المهم هو حديث كومار عن إيطالية جميلة. ايطالية أخرى غير إيطالية رأس السنة التي سمعنا عنها في حكاية الحاج حميد. ايطالية اسمها سونيا. يا يسوع. أجمل من صوفيا لورين. يهواها راجيف غاندي فتختصر معه العالم برحلة حب واحدة من إيطاليا إلى بريطانيا لتستقر في الهند.

دخلت المعقل خلال ذلك الوقت نفقاً ضيقاً. معتماً وطويلاً. كان يبدو من الخارج مضاء. جدرانه صقيلة لامعة الطلاء. لكن أحداً لم يكن يدري ما ينتظره في الدواخل الصخريّة. وراء الكوّة المقبلة. معلمون يُخطفون من المدارس. وموظفات تهشّم أرواحهن سيارات سريعة خاطفة ـ في ذلك الوقت شهد العراق ارتفاعاً لا سابق له في الوفيات بسبب حوادث الطرق ـ وطلاب يضيعون في المسافة بين المدارس والبيوت. شيوعيون يُسحقون مثل خرزات عقد مقطوع. وإسلاميون يُفرمون. وبعثيون يُطردون من القاعات في مهرجانات تصفية ليعدموا بنيران رفاقهم على جدرانها الخارجية. على مسافة قريبة من دموع الرئيس التي ستعتاد الناس بعد ذلك رؤيتها. والجموع الغفيرة يضجُّ بها التلفزيون وهي تركض وراء موكب الرئيس في زياراته الميدانية من بيت لبيت.

كلما خطفت سيارة من جانبي. مهما كان لونها أو نوعها. كنت أعيش خوفاً

لا ينقطع. خوفاً ترتجف له يدي ويدور رأسي. ولا أسمع معه غير صراخ أناس بعيدين. صراخ أناس أعرفهم. ترتفع أصواتهم في ظلام النفق وتتراءى ملامحهم مثل أقنعة جلد يشقّقها العذاب. أمضي إلى فراشي منذ أول الليل بخطوات بطيئة عمياء وأعلم أن أحلاماً كثيرة تنتظرني وكوابيس تناديني. كوابيس تختلط فيها الوجوه وتتداخل الأقنعة. ولا يبقى غير شعوري العميق بالألم. ألم ألتقطه صباحاً في حكايات الناس الخفيضة عن رجال الأمن. وأراه مع سياراتهم الخاطفة.

كان يسير أمامي. يسير ولا يلتفت. مندفعاً على طريق صخري. يرفع صوته مرّة في حديث أتصوّره لن ينقطع. ويسكت مرّة أخرى حتى أخاله لن يتحدث أبداً. كان يهمّ في حديثه وسكوته مواصلاً خطواته من صخرة إلى صخرة. كل صخرة تأكل من لحمه شيئاً. حتى بدأت رجلاه تخلّفان أثراً على كل صخرة. رجلاه المتيبستان تحت ساقين ضامرتين مثل خشبتين لوحتّهما الشمس. كانتا تتركان أثراً على الصخور. وكانت الرغبة تتآكلني في أن أسأله عن الطريق. هل من نهاية للطريق. في كل مرّة أهمّ أن أقول ولا أقول. لم نكن قد أكلنا شيئاً. سألني أول الطريق وكان الهواء ما يزال نديّاً إن كنت قد شربت حليب الماعز من قبل. قرّب وجهه وسألني. أحسسته شبيهاً بوجه خالي الشاب في الصورة. ولم أكن قد أجبت حينما ظهر رجل على جانب الطريق. كان يمشي هو الآخر تتبعه معزاة ضامرة يقودها بحبل. توقّف حينما اقتربنا منه وكانت رائحة الحيوان الزنخة تملأ المكان. ألقى الحبل

وأخرج من كيس صوف معلّق على كتفه طاس نحاس منقوشاً وأخذ يحلب معزاه. كان الحليب ينزل قوياً على الطاس. أسمع صوته وأراه ينقّط على يد الرجل. عندما امتلأ الطاس نهض الرجل مقترباً مني وقال:

ـ تزوّد. أمامكما طريق طويل.

وقرّب الطاس.

لم تكن قد شغلتني رائحة الحيوان الزنخة أو رائحة الحليب القوية أو دسامته. كنت مأخوذاً بوجه الرجل وقد كشفه ضوء أول الصباح. كان شديد الشبه بوجه سعود. قرّبت الطاس من فمي وشربت. كان صاحب المعزاة قد التفت لصاحبي بعد أن مدّ يده وأمسك الحبل. حبل المعزاة الطائعة. شربت الحليب دفعة واحدة. لم أشعر بالجوع أو العطش حتى وضعت الطاس على فمي. استنشقت الرائحة الكثيفة الفاغمة. وأحسست قوّة الطعم ولذوعته فور نزول الحليب في فمي. لم يكن يشبه حليب الماعز ولا حتى حليب البقر أو الجاموس. كان كثيفاً. دسماً. غريب الرائحة. يُثقل الفم ويضغط في نزوله البلعوم حتى إذا استقر في معدتي أحسست كأن يداً مقبوضة تنزل فيها. أحسست دسامته تُثقل صدري. وبخاره يتصاعد ويلوّث العقل. فتغيب وجوه وتحلُّ وجوه.

من وجه إلى وجه
ومن حكاية إلى حكاية
تتنقل الوجوه بين الحكايات

تعبر من حلم إلى حلم

أرى الرئيس جالساً في واجهة طاولة مستديرة عالية وقد كبر عشر سنوات أو أكثر. أرى عينيه تهدلت تحتهما أكياس الجلد وارتسم ضباب على حدقتيهما. لكنه ما يزال على عادته. ينظر من علو شاهق لوجوه ضبّاطه الذين جلسوا أمامه ببزّاتهم العسكرية لامعة القماش في صفّين طويلين متقابلين. كل منهم ينتظر دوره بصبر موجع مدارياً خوفه للحديث عما رأى وعاش. عن أوقات الموت المريرة في حرب طويلة يتحدّثون.

عن أية حرب يتحدّثون؟

عن أي موت وأية حياة؟

كان الرئيس ينظر كما لو لم يكن يرى أحداً. عيناه الغائمتان تسرحان بعيداً عن ملامح الضابط الذي يواصل حديثاً عن الموت. موت يملأ الجهات ويتصاعد ليثقل الهواء. والضابط يركض. قدمه تدوس على الجثث. يكاد يتعثر بخوذة فارغة أو رأس مفلوق لكنه يسحب رجله ويواصل. والأجساد تتساقط من حوله. شائهة. مرمّدة. مدماة. في لحظة غير مرئية انفصل الضابط عن خوفه. نزعه مثل لحاء متيبس شققته سنوات عذاب صامت طويل. لمعت عيناه ببريق اللحظة التي واصل الركض فيها. لم يعد مشدوداً لوجه الرئيس. لم يعد منصاعاً لبلاهة العينين. لم يعد يحكي على مسامع أحد. كان يستعيد ضراوة المشهد متحدّثاً عن قسوة الموت وخبطاته العنيفة الموجعة.

قال:

ـ لكثرة ما رأيت الآخرين يموتون. ولقرب الموت الذي جعلني أتنفس رائحته سألت نفسي: هل سأموت أنا الآخر؟

الرئيس وحده من يملك الحق في تسخيف المشهد فقد عاد من ضباب سرحانه كما لو أن أحداً وضع خطاً تحت جملة الضابط. أو رفع درجة صوته ففزّزه. ألقى ببرود كلمته الممطوطة وهي تذوّب المسافة بين السخرية المرّة والإطراء الضحل:

ـ عفيه.

عاد وجه الضابط معها على الفور إلى خوفه القديم. استعاد لحاءه المشقق وخفف من ركضه. نسي مواجهة نفسه وقفز بعيداً عن أشلاء جنوده المقطّعة. رجع مرّة أخرى إلى القاعة وقد ضيّع إحساسه العميق بالموت وتبخّرت من حوله الأجساد المتساقطة. كان يدور في دوامة الكلمة. مأخوذاً بإيقاعها الغريب. مستنشقاً رائحتها. كأن الرئيس ضرط في فمه.

كنت أحكي ليوسف وياسين بعض كوابيسي. أتخفّف من أعبائها. تاركاً ليوسف أن يحدّثنا عن سعود. ينتقل به كما يشاء. يدور في ليالي المعقل. بعيداً عن القذيفة ـ وقد نزلت بحكايتها الموجعة بعد أشهر قليلة من سهرة المخزن. في واحدة من ذرى عام 1979 الحزينة ـ وهي تستقر بورقتها الخشنة في دفتر الصور. مقابل صورة عبد الحليم على سرير المرض. وحدها تطلق نداءها الصامت على بياض الورق المخطّط. قريباً من ملاك الشمع ذابل العينين وهو ينظر من نافذة الغرفة. من إحدى نوافذ ردهة الأطفال المفتوحة في مستشفى الموانئ. للطريق الذي مضى فيه عبد الحليم. الطريق الذي مضى فيه سعود مخلّفاً أم داوود بصوتها الذي لا يشبهه صوت على طول المعقل وعرضها

تتربّع بهيكلها الضخم في حوش المنزل وسط عزاء النساء. تنفصل عن ظلال النساء وخفق أحزانهن لتقف وحدها في قلب الدائرة. وهن يتحلقّن حولها صفاً وراء صف. يجتمعن حول صوتها النابض المهدّد القوي وهو يجلجل في كل عزاء. إنها تحيك أحزان أناس المعقل بساطاً مديداً متقن الحبك تفرشه في كل عزاء متحدّثة عن بياض قلوب الراحلين وحنو أرواحهم. عن وحشة الذهاب الذي لا رجوع بعده. لم أكن أخاف امرأة من بين نساء المعقل أكثر من أم داوود. صوت ما كان يحدّثني كلما رأيتها عن المرأة التي تعرف الموتى واحداً واحداً كما تعرف أبناءها. أراها بقامتها الطويلة و تحديقتها المفزعة تخطو متمهلة في أحد شوارع المعقل وأتصوّرها تنتقل من عزاء إلى عزاء. أسمع صوتها بعد أن تغيب يتعالى فيها جميعها ممتلئاً بالمرارة والنغم. وهي تستعيد بطلاقة مؤسية أسماء الموتى وملامحهم. تهتف بأسمائهم فينهضون. مع كل عزاء ينهض أموات المعقل. يستمعون لنداء أم داوود فينفضون التراب عن أجسادهم ويسيرون نحوها مثل خراف خائفة. إنهم يقفون مغمضي العيون خارج العزاء. تراهم أم داوود من بين أجساد النسوة اللاطمات. ترى خرافها الصامتة. وتعدّد محاسنهم بنواعي موجعة تقطع القلب بسكينها الباشطة. تلتهب الروح مع تنغيمها ويغيب النوم ويغدو طعم الريق مُرّاً يستحيل ابتلاعه:

شگولنش على سعود

أبو گلب السمح وعيون سود

أبو روح الحنينه ومثله ما موجود

سافر عالوحشه وخلاّنه

وعلى الرغم من أن عيني سعود لم تكونا سوداوين. وأن لا أحد من أبناء المعقل قد صاحبه ليؤكد سماحة قلبه. فإن نساء العزاء يصرخن بصوت واحد موجوع كما لو كانت أم داوود ترمي بهن على حجر. تهشّم أضلاعهن. قبل أن تُلقي بهن في بئر النعي العميقة المظلمة. قبل أن تسحبهن دوامة الحزن إلى أعماقها القاهرة. ولا ينقطع الصراخ إلا مع صوتها وهو يعلو من جديد:

شگولنش على ابن المضايف والدواوين

أبو طول الرمح أو وسعة العين

ينحسر من حولي صراخ النسوة ويغيب ضجيج العزاء مستغرباً من المضايف والدواوين التي لم يدخلها أحدنا في حياته. من طول الرمح الذي لا يشبه قامة سعود بأي حال من الأحوال. لكنني أفزُّ على مرأى كريمة وهي تعبر بثوبها اللوزي الخفيف مكركش الذراعين واسع القبة من أمام عزاء الرجال. مشّطت شعرها السرح الفاحم الطويل وزجّجت حاجبيها مثل هلالين رشيقين فوق عسل عينيها وتزيّنت. تزيّنت حتى شهق لعبورها كل من في العزاء. في تلك اللحظة إلتفتُّ إلى المجلس ونظرتُ لوجوه الرجال. كان صوت عبد الباسط يبرق في خلفيّة مشهد ثابت. لم يرمش جفن أحد منهم. ولم ينفث دخان سجارته. من بين الوجوه المأخوذة الصامتة رأيت وجه خالي. وجه خالي الذي لم أره منذ كنت صبيّاً. كان محشوراً إلى جانب والدي بين أجساد رجال غريبين وسط السرادق الطويل. وحده يتحرّك. كأنه لم ير كريمة. لم تسحره إطلالتها ولم يعبأ لوقفتها. يرشف الشاي من استكان مُذهّب الحافة وقد أمسك الصحن الزجاجي بيسراه. متلذّذاً بخيط المرارة مع مذاق الهيل على لسانه. كان يستمع شارد الذهن إلى عبد الباسط ينغّم

آيات الحشر. ينظر إلى أمام من دون أن يرى كريمة تعبر متمهلة الخطوات من أمام العزاء. خطوات امرأة اعتادت العيش بجرأة. جرأة أكبر من أن يحيط بها نظر رجال المعقل. دخلت إلى البيت ومرّت وسط نساء الحوش المتحلّقات حول أم داوود التي سكتت هي الأخرى وقد نزل الصمت من حولها مثل لوح زجاج كثيف. غيّب عن عينيها مشهد أمواتها الواقفين خارج العزاء. طنّت مكبرة الصوت المثبتة على السطح لكن أحداً من الرجال لم ينهض ليدير شريط التسجيل على الوجه الآخر ويعيد لعبد الباسط طلاقته. بدت زقزقة العصافير على شجرة البمبر أكثر وضوحاً. كانت العصافير تنقر لوح الزجاج نقرات دقيقة خاطفة. توجّهت كريمة إلى غرفة سعود كما لو كانت تعرفها. كما لو كانت دخلتها مرّات من قبل. أحسّته قريباً من جديد فور دخولها الغرفة. أغمضت عينيها وتنفست بعمق وهي تُحس رائحته تملأ صدرها. كانت أكثر من رائحة شخص غائب. إنها نداء روح حبيبة يُرسله المكان. يملأ صدرها ويتحرّك في مجرى دمها. فتحت دولاب ملابسه وقد ترك مفتاحه في القفل تتدلى منه مدالية على أحد وجهيها يتربع بوذا بجرمه العظيم وصلعته النظيفة اللامعة ضاماً يديه إلى صدره. على وجهها الآخر كلمات أوردية عن الروح والتسامح والسلام. كان كومار قد وضعها بين يدي سعود بعد ليلتهما في مخزن السنبلة وهو يردّد الكلمات محاولاً تفسيرها بلغته الخليطة بعد أن لعب الزحلاوي لعبته. فوق صورته الشخصية بعمامته ولحيته وعينيه المكحّلتين. رأى سعود الصورة تسقط من جيبه عندما أخرج الميدالية فانحنى والتقطها. على غير عادته مع الصور قال لصديقه بأنه سيحتفظ بها.

ـ كومار هذي للذكرى.

قال له.

ابتسم كومار كما كان يبتسم في الصورة وهزّ رأسه. اهتزت عمامته وتلاعبت ضفيرتاه. حملتْ ثيابه لبدلة كاملة: فانيلة قطن داخلية مخرّمة ولباس قماش أبيض وقميصاً وردي اللون بذراعين كان يُحبه أكثر من أي قميص آخر. كلما جاءها به عرفت أن شيئاً ما أسعده ذلك النهار. وأن ليلتهما ستكون ليلة هائلة. وبنطلونه الجينز سمائي اللون خفيف القماش. الذي خطف نظرها قبل أسابيع قلائل وهي تمرّ في شارع المغايز متوجهة إلى سوق البنات. توقفت أمام واجهة الثياب الرجالية وتأملته. كما تتوقف الزوجات وهن يستجبن لنداء الأمومة الآسر. النداء الذي يغدو الأزواج معه أبناء صغاراً بين أبنائهن. كان البنطلون معلّقاً في منتصف الواجهة. تحت ضوء المصباح المدبّب. مائلاً قليلاً. ترتفع ساقه اليمنى برشاقة وتنحني يسراه انحناءً راقصاً. سيكون جميلاً عليه. حدّثت نفسها وقد اشترته على الفور على غير عادتها. لم تفاصل مع البائع. ولم تسمع السعر. كانت مشغولة بسعادتها. وفي الليل ضحكت مع سعود وهي تُعيد عليه الوضعية التي عُرض البنطلون فيها وهو يقلّدها لاهياً. يقفز مرّة ويرفع إحدى ساقيه مرّة أخرى. من رفّ الدولاب الأسفل رفعت كيس نايلون ملوناً وضعت الملابس فيه. بعد أن نظرت إليها قطعة بعد أخرى بشغف. تأملتها بحنان. وأعادت ترتيبها من جديد. لم تنس أن تلتقط زوج جوارب يتناسب مع لوني القميص والبنطلون. أغلقت باب الدولاب. تركت ميدالية بوذا تطقطق على بابه وتوجّهت بالخطوات المتمهلة نفسها إلى باب الغرفة. من خلفه حملت حذاء الروغان اللامع قاتم الزرقة. أدخلته في كيس منفرد ثم وضعته مع الملابس. خرجت من الغرفة وجالت في المنزل. دخلت المطبخ والحمّام وغرفة العائلة والاستقبال. لم تكن تبحث

عن شيء. كما لم تكن تنظر لأحد. كانت محض شبح يطارد رائحة. شبح امرأة فاتنة يطارد رائحة شخص غائب. محلولة الشعر ومغوية تدور بين الغرف. خرجت من غرفة الاستقبال وتوجهت إلى أم سعود التي كانت تتابعها زائغة النظرات مثل باقي النسوة. سألتها عن صفاء. كان ينظر للعصافير. يتمدّد في حديقة المنزل تحت شجرة البمبر وبجانبه كيكي. غير عابئين بمهرجان الحزن حولهما. منحته كريمة يدها فنهض وأمسك بها. بيده الأخرى حمل كيكي الذي نفض شعره عن رأسه ناظراً نحو كريمة. سارا من أمام العزاء.

صوت صاف.

صوت وحيد يتصاعد.

كما لو كان يقترب من بعيد.

تُحسه غريباً أول الأمر. ثم تشعر رنّاته الدقيقة الوامضة.

ليس من صوت سواه يتصاعد من وحشة الروح. من حزنها. من بئر غربتها العميقة. من صدع زجاجها. واضحاً. يكتمل في قربه. خالص النبرة. لكلماته بريق ولحروفه رنّة. لجمله ملامح وقسمات. تُقسم أنها رأته. يكاد يُمسك باليد. رأت في رنين حروفه ملامح سعود وتبيّنت قسماته. بشاشته الواسعة وحزنه البليغ. رأت عينيه الوامضتين لحظة حدّثها عن صفاء. كان نائماً على السرير. صدره عار وذراعاه مفتوحتان. حدّثها عن الكريّات التي يسمع تكسّرها. صوت ينبثق من داخل صوت. صوت يقود إلى صوت. يتبعه ويغيب فيه. يمضيان معاً. يتلاشيان. يرهقها الصوت في ذهابه وتناهيه. لا تعود له ملامح ولا قسمات. يتداخل مع أصوات لا عدَّ لها. يذوب في

حومة أصوات تعرفها ولا تعرفها.

كان سعود ما يزال متمدّداً على السرير. صدره عار وذراعاه مفتوحتان. من نقرتي إبطيه يطلُّ عشب كثيف. سواده يلمع تحت سيقان الظباء الرشيقة وهي ترعى طليقة في النقرتين الواسعتين. بأصابع طريّة وضعت زينتها. رسمت خط الكحل باستدارته الرفيعة المكتملة. خط الكحل الذي طالما حدّثها عن افتتانه به لحظة يسوّر البياض ويؤطّر العسل. بياض عينيها الذي ارتسمت عروقه دقيقة حمراء. يعلم أنها ستذهب بكامل بهائها. بسمرتها الحارقة وشعرها الأسود الطليق. بثوبها اللوزي الخفيف مكركش الذراعين واسع القبة تتوقف أمام عزاء الرجال كما لو كانت تتوعدهم واحداً واحداً.

كأنها سمعته يضحك في نفسه لجنونها. كأنها سمعته يسأل:

ـ ستذهبين؟

أكملت دورة أحمر الشفاه. مسحت شفتيها ببعضهما. نظرت له في مرآة الزينة. كان يلوح على شفتيه شبح ابتسامة.

ـ لا يمكن أن أبقى وحيدة.

قالت.

ـ غيابكَ يقتلني.

انتظرت أن يلمّ يديه. يستدير نحوها. يفتح عينيه وينظر. كانت قد نثرت شعرها منذ الفجر وسرّحته طويلاً. ساعات لا تدري كم عددها مرّت عليها وهي تسرّح شعرها. لكنه كان يواصل صمته. مغمض العينين.

كان يوسف يعود إلى المنزل في وقت متأخر من الليل طوال أيام العزاء.

بعد أن يكون قد انفضَّ عن المجلس آخر المتسامرين. يجول في الغرف كما جال شبح كريمة. من غرفة إلى أخرى. من دون أن يضيء مصابيحها. ثم يتمدّد في الحوش المفروش. يثني يده تحت رأسه ناظراً نحو غرفة سعود تغرق في الظلام. مترقّباً خروجه بعد أن يُضيء المصباح. كُم قميصه مثني حتى المرفق. شعرات ساعده تشع مثل أسلاك ضوئية دقيقة وملتوية. يتقدّم نحوه. ينحني واضعاً يده على كتفه برفق وينده باسمه مرتين. لثلاث ليال كان يوسف يفزّ على صوت أخيه. على ندائه المتكرر. على أنفاسه تمسح وجهه وتملأ الحوش. لم يكن قادراً على النوم. كان يلمس قوامه اللين الشفاف لمساً خفيفاً عابراً. ينزل تحت سطحه الهلامي جسداً هامداً لا حياة فيه. يرى نفسه ينزل على نحو سريع. وقبل أن يصل القاع. يُحس اليد تستقر حانية على كتفه ويسمع النداء. بعينين محمرّتين لم يمح النوم المتقطع القصير تعبهما ينظر إلى الغرفة ما تزال تغرق في الظلام ويصله صوت أمه تشهق في نومها. يسحب يده من تحت رأسه. يده التي تؤلمه. ينهض متوجهاً بخطوات ثقيلة متباطئة إلى الباب. باب المنزل المفتوح. يعبر الحديقة وقد منحته رائحة البمبر أول الفجر شعوراً غريباً غير مفهوم. مزيجاً من وحشة ورهبة وانتظار. يمشي في شوارع المعقل. من شارع لشارع. يسمع طنين مكبرات الصوت قبيل ارتفاع الأذان.

كنا نريد أن نفعل شيئاً. أي شيء. بحثنا عنه بعد أن عبرت كريمة من أمام العزاء. دخلت إلى المنزل وخرجت بثياب سعود متوجهة إلى الحديقة. مدّت يدها لصفاء. صفاء الذي نهض كما لو كان يعرفها منذ زمن وسارا معاً. كريمة تحمل كيس الملابس وصفاء يحمل كيكي. ذهبنا إلى الضفة. الضفة التي كنا

ننزل ثلاثتنا مهرولين على منحدرها.

ـ لن نعثر عليه.

قلت لياسين.

ـ سيكون هناك. منطرحاً على العشب.

قال.

وكان العشب خالياً. لا ينطرح عليه أحد.

جلس ياسين متسائلاً بصوت خفيض:

ـ أين يمكن أن نجده؟

كانت يده تعبث بالعشب

ـ لن يضيع يوسف في المعقل.

قلت له وقد فكّرت في السينما. بدار عرضها الصيفية الواسعة. غرف خلفيّة تظل أبوابها مفتوحة طوال الصيف. تسلّقنا سياجها المطلَّ على النهر بطابوقه المحفّر ولم يكن هناك. لا في صحنها الكبير الخالي بمدرّجاته الواسعة ولا في إحدى غرفها الخلفيّة. في مطار المعقل وجدناه. يجلس في أحد أركان مسقّفه المرتفع. بعد أن أتعبنا المشي حتى جسر الخشب مروراً بفندق شط العرب الذي أقام فيه عبد الحليم. لم نأت إلى المطار إلا مرّات قليلة. كان يوسف يتركنا على الشط قريباً من الجسر ويذهب. يتسلّق سياجه الحديدي وينزل خلف قاعاته العالية المسقّفة بالصفيح. يُبهجه أن يركض فاتحاً ذراعيه كما لو كان يطير على مدرجه الواسع وقد ملأت أرضه الحفر ونبت الشوك بين شقوقه. يُعجبه أن يتجوّل في المطار الذي بدأ يُترك شيئاً فشيئاً مع الانتهاء من تشييد مطار البصرة الدولي في منطقة أبي صخير. يدور من قاعة إلى أخرى وصولاً لمعمله الواسع بسقفه شاهق الارتفاع. يقفز من فوق مكائن

الطائرات الكبيرة المهملة. دفعنا باب الحديد الثقيل وقد أكل حوافه الصدأ ودخلنا على مهل. رفع يوسف رأسه من آخر المسقّف. نظر إلينا متسائلاً إن كان سعود قد عاد.

دخلت كريمة إلى منزلها. تركت صفاء في غرفة الاستقبال. على يديه يتكوّر كيكي. وتوجهت إلى غرفتها. كانت الغرفة تركد تحت روائح الليلة الماضية. رائحة بخور حادة و ذوب شموع خالطتها لوعة جسد أنثوي منهك وحزين. على السرير نشرت ثياب سعود. بدأت بالداخلية منها ثم فرشت فوقها القميص. تركت ذراعيه مفتوحتين ومدّت البنطلون. رتّبت الجوارب في فتحتي الساقين. ثم أخذت تتأمل الثياب وهي تنتشي في التماع الشرشف المطرّز الناعم. تأملتها بكل ما يعتمل في صدرها من فقد. وبكل ما يبهضها من خسران. تمدّدت إلى جانبها وانخرطت في البكاء. بكاء بدأ خفيضاً مثل نهنهة عابرة ثم تصاعد في نشيج. نشيج متصل ملأ غرفتها وفاض حتى وصل إلى غرفة الاستقبال. جلس صفاء. لم يستطع الاستمرار في وقوفه فجلس. فتح يده ووضع كيكي على السجادة. لكنه لم يتحرّك. ظل ملتصقاً به كما لو كان يخشى مثله أن يغرق في مياه النشيج. كانت كريمة تبكي بكل إيمانها بأنها لن تصل إلى الحب مهما حاولت. فها هي تعود إلى الوحدة من جديد. الوحدة المعلّقة فوق رأسها مثل ناقوس نحاس. كلما رفعت عينيها رأته كبيراً و قديماً ومعتماً.

كانت تعلم أنه ينظر لها. من وراء زجاج النافذة. عبر ستارتها المسدلة. من

خلف باب الخشب الموصد. من فتحة ما غير مرئية في الجدار. تُحسُّ نظراته تتسلل إليها. تحوّطها. تشدُّ يدها وهي تمتد متردّدة إلى أزرار القميص. تفتحها لتخلعه في غرفة إدارة معمل ببسي كولا البصرة بعد أن غادر عمّال المعمل وموظفوه. تخلع ثوبها الداخلي ناعم القماش ثم تفتح حمالات الصدر وتُلقي بها على المكتب. قريباً منها. تشعر أنفاسه دافئة تغطّي جسدها وهي تقف بالتنورة وسط الغرفة. تلمس بطنها الأسمر. تلحس سرّتها الملمومة مثل قطرة مطر. وتصعد حتى حلمتي نهديها الصغيرتين وقد أنعشهما هواء الغرفة المكيّف. كان يرعبها أن تُدرك أنه خلفها في طريق العودة. يلاحقها بخطى حثيثة وعندما يصير إلى جانبها يقف لينظر إليها. إلى عينيها مباشرة. ترعبها نظرته الغاضبة. تعصر قلبها حتى آخر قطرة من الدم فتشعر ألماً في صدرها ويضيق تنفسها. كانت نظرته قد أيقظت شيئاً سيظل محلقاً في أعماقها على نحو دائم. تشعر حركته الطليقة وتُحس تحويمه. حرّاً. نابضاً. رقراقاً مثل موجة. موجعاً مثل جرح. تتمنى لو تركض. تفرُّ من صمته ومن غضب نظرته. لكن قدميها لا تستجيبان. يتركها ويمضي من دون أدنى كلمة. كما لو كانت نظرته كافية لتفريغ ما يعتمل في نفسه. كانا يعملان معاً في المعمل أوائل السبعينيات. كان قد تخطى العشرين بما يقارب العامين ولم ينته من الدراسة المتوسطة. يعمل يومين أو ثلاثة أيام من الأسبوع في أي عمل يصادفه. في بقية الأيام يذهب إلى المدرسة التي كانت بالنسبة له مثل دواء مرّ يصعب تجرّعه. من متوسطة المعقل النهاريّة تحوّل إلى الفاروق المسائية ومن الفاروق إلى متوسطة الجماهير. كان يغيّر المدارس كما يغيّر قمصانه. كلما رسب أحسَّ اختناقاً في المدرسة فغادرها إلى أخرى. كانت مدارس المعقل جميعها قد ضاقت عليه قبل أن يقرّر التخلّص من عناء الدراسة والتوجّه كلياً إلى العمل. لم يجد أمامه

ما يوفّر له عملاً منتظماً براتب معقول غير معمل كبس التمور في الداكير مقابل شط العرب. أو معامل الأخشاب في محلة نظران في البصرة القديمة. أو معمل الببسي كولا في منطقة الحكيميّة مقابل شركة نفط الجنوب أو المكينة كما يسميها أهل البصرة. كان قد مرّ على المعامل واحداً بعد آخر. ينهض مبكراً كما لو كان العمل ينتظره ويعود متأخراً. بعد انتهاء الدوام وعودة العمّال. ينتقل من معمل إلى آخر بحثاً عن فرصة مناسبة. يلاحق مصيره من الداكير إلى محلّة نظران إلى الحكيميّة. من دون أن يدري أنه يقف قريباً منه على رصيف المعقل. ينظر له صامتاً في كل وقت. ولبعد المكابس عن المعقل وصعوبة العمل في معامل الأخشاب قرّر التوجّه إلى معمل الببسي الذي لم يكن قبوله فيه بالأمر الهيّن. دخل على مدير المعمل بصلعته اللامعة وقد سكت عن النطق وهو يرى المدير يضيّق عينيه. ينظر له بإمعان كما لو كان سيرسم له صورة. ثم يفتح فمه كأنه يعالج عطسة في طريقها إلى الانفجار. يرجع سعود قليلاً مخافة أن يبلله رذاذها. لكنه ما أن يبدأ بالكلام عن المعمل وأهميته وعن ضرورة انضباط العمال فيه حتى يتأكد سعود أنه لن يعطس. إنما هي ملامحه وقد صُبّت على عجل. يفكّر أن ما كان يعوز المدير ثلاث لمسات. ثلاث لمسات فحسب تعدّل الأولى فتحتي عينيه وتضيّق الثانية فتحتي أنفه فيما ترتّب الثالثة وضع الفم. تمسح عنه شبح العطسة المستحيلة. ولا بأس أن تظل الصلعة على حالها إذ يمكن أن تبدو وحدها أمراً محتملاً. فزَّ من عبثه بملامح المدير على صيحة الأخير وهو يدعوه للكلام.

ـ شبيك أخرس؟

يتساءل باستهجان. ثم يضيف مستنكراً:

ـ ما بقي إلا الخرسان!

لكن سعود يبتلع تعجّبه من غرابة ملامحه ويؤكد بصوت متقطّع بأنه ليس بأخرس وهو فضلاً عن ذلك يُحب البسبي أكثر من كل أهل البصرة. ومثل أي عامل مستجد بدأ العمل بقسم التنظيف حيث تُعاد القناني فارغة إلى القسم لتنظّفها الآلة وتدفع بها على شريط مطاط مبلل طويل إلى قسم التعبئة. قسم التعبئة الذي كان يضمُّ ست فتيات ومشرفة عمل من دون سائر الأقسام. لم يشغله من المعمل غير كريمة بعينيها العسليتين وسمرتها الباهرة. سمرتها التي تحلّق بمذاقها الساحر أعلى من سمرة أهل البصرة المعتادة. قبل أن تذوب في الفم مخلّفة نشوة لاسعة. بأعوامها التي لم تتخط الثمانية عشر. هكذا قدّر. من طولها. من فتنة ملامحها. من امتلاء نهديها اللذين يراهما من فتحة الزيق كلما انحنت على القناني. مع انتقاله إلى قسم التعبئة بعد أشهر من عمله أخذ يراهما على نحو أشد فتكاً. يوجعه امتلاؤهما وتملأ رأسه رائحتهما التي يتصوّرها فوّاحة دافئة. مثل فوح أوراق البمبر قبل انفجار نهارات الصيف. أكثر فتكاً من نهود نساء الورق التي أكلت روحه. كما يرى بهيجة. مشرفة القسم. بقامتها الرفيعة ووجهها المنمّش الممصوص تحوم حولها بروب عملها متسخ الأطراف. تمضي بها بعيداً عن العاملات لتحدّثها على انفراد. تنحني عليها في أي وقت بقامتها الرفيعة مثل رمح وتهمس في أذنها. تسهّل أعمالها وتمنحها من دون سائر البنات أذناً متكرّراً بالانصراف. كلما خرجت من القسم سمع باقي البنات يتضاحكن في غفلة من المشرفة متمازحات على العفريتة التي ستخضُّ البنت كما تخض قنينة البسبي. لم يفهم ما يدور حوله بوضوح لكن جولات المدير الصباحيّة. ومكوثه الطويل في قسم التعبئة مقارنة بمروره الخاطف على الأقسام الأخرى. منحته فكرة عما يدور في خفاء المعمل مثلما أضافت للمدير علامة فارقة أخرى. فهو ليس بحاجة لثلاث لمسات فحسب

تعدّل بعض ملامحه. تزيل عنها غرابتها. إنما هو بحاجة ماسة للمسة رابعة. تعدّل ساقه اليمنى وترفع عن كاهله عناء عرج يميل بجسده مع كل خطوة.

كان يتعمّد التأخر بعد انتهاء الدوام. يحمل أحد الصناديق القريبة ويمضي به إلى الركن. قريباً من الباب. خلف صفوف الصناديق العالية ويظل هناك حتى يخلو المعمل. من بين قناني البيبسي يرى بهيجة تدخل مع إحدى بنات القسم إلى غرفة الإدارة. يسمعها تتحدّث بطلاقة وانشراح على غير عادتها. يسمع صوتها يعلو قبل أن تخرج وحدها وقد بقيت العاملة في الداخل. ينسلُّ بعد خروجها وقد ملأت كريمة عليه تفكيره. يتصوّرها في الغرفة وقد تركتها بهيجة بين يدي المدير وأغلقت الباب وراءها. يرى أصابع المسخ تزحف بجلدها المجعّد نحو أزار القميص. تفتحها زراً بعد آخر. في دناءة باردة ترمي القميص عنها. يراه وقد انحنى بصلعته الحقيرة على صدرها. يشمُّ مفرق نهديها. تملأ صدره رائحتها الفوّاحة الدافئة. يدفن وجهه بينهما ويشمُّ نهديها اللذين يترجرجان على يده. ثم يقرّب النهد من فمه. يضع حلمتها بين أسنانه. يلاعبها بلسانه وقد أغمض عينيه. أغلق شقيهما. ثم يعضُّ حتى يسيل الدم من حافتي فمه. يؤلمه أن يرى كريمة تحدّق في سقف الغرفة بلا ألم. كأنه ينهش نهداً غريباً.

أخذ يُثيره مرأى بهيجة وهي تقترب منها. تتودد لها. تنحني نحوها أو تمضي بها بعيداً عن البنات. كان دمه يغلي فيُسقط على الفور إحدى القناني عن

الشريط أو يرمي صندوقاً عن الماكنة. حتى هددته بهيجة بالطرد إذا لم ينتبه لعمله مرّة أخرى. كانت ملامحها تتبدل وهي تتوجّه نحوه. تُلبس وجهها المنمش الممصوص قناعاً معدنياً شرساً. وصوتها يرتفع ليملأ المعمل مغطياً على ضجيج المكائن وأصوات العمّال.

بعد أيام من تهديد بهيجة خرج سعود مع انتهاء الدوام. لم يكن يفكّر أنه اليوم الذي سيكون فاصلاً في حياته. كان ينظر إلى البنات من حوله باحثاً عن كريمة وفي اللحظة التي لم يرها فيها أبطأ خطواته تاركاً للعمّال أن يتجاوزوه. كان يخشى أن يلتفت أحدهم نحوه. ينظر لملامحه التي أخذت تشتعل أو يستمع لفورة دمه. بعد أن مضى العمّال رجع راكضاً إلى المعمل. دخل دونما صوت ثم وقف خلف جدار الصناديق محاولاً الاستماع لصوت بهيجة الذي يتعالى طلقاً منشرحاً وهو يتصوّرها وقد فتحت باب المكتب وتوجهت نحوه. قدماها تضغطان على قاع نفسه وعيناها ثابتتان تحدّقان باتجاهه. حالما وقفت أمامه رآها تمدّ يدها وبأصابع قوية تعصر أحشاءه. ثم تسحبها ببطء خارج جسده. الأصابع تعصر وألمه يزداد. لكن المعمل كان صامتاً. من نافذة سقيفة الصفيح المفتوحة دخلت حمامة. حلّقت تحت سماء المعدن المضلّع باتجاه أعمدة الضوء المتسلّلة من الثقوب. جناحاها يرفرفان في صمت المعمل. حطّت على أحد أعمدة السقف وضمّت جناحيها. كان يراها تحرّك رأسها الصغير حينما سمع باب الإدارة يُفتح. خرجت بهيجة وأغلقت الباب وراءها. كانت قد خلعت روبها وارتدت ثوباً قديماً داكناً. رآها سعود وسمع خطواتها وهي تمرّ قرب الصناديق قبل أن تخرج من باب المعمل فركض على

الفور نحو غرفة الإدارة. مع كل خطوة كان يرى وجه كريمة تضغطه ذراع الماكنة. تشوّه ملامحه. يفتح فمه. مع كل خطوة. يعبُّ الهواء. رأى نفسه يركل باب الخشب بقوة فينفتح مهشّماً زجاج نافذته. رأى المدير وقد شلّه الفزع يقف وسط الغرفة رافعاً يديه في تسليم. كأنه كان متوقعاً الركلة. مترقّباً يد سعود وهي تهوي على جبهته بقنينة الببسي الممتلئة. كان قد خطف قنينة من أحد الصناديق القريبة. لم يشعر بيده وهي تمتد إلى الصندوق. ولم يفكر ماذا يمكن أن يفعل بها. غطى السائل البني الخفيف جبهة المدير المجعّدة واختلط بدمه الذي سال على وجهه في خط مستقيم قبل أن يتهاوى على الأرض. رأى كريمة تكوّر نفسها. تغطي صدرها بيدين راجفتين. قبل أن تسقط مثل سعفة على الأريكة.

آلمته صورة كريمة وهي تغطّي صدرها قبل أن تسقط أكثر مما آلمته نهارات السجن ولياليه. لياليه الطويلة التي نغزته فيها وهي تعاوده دونما تغيير. حتى أخذت تنفصل عن كل ما حولها فيراها تسقط في فراغ. في سقوطها ترفع يديها وترفرف. تحوّم عارية الصدر. حلمتاها تبرقان مثل نجمتين تحت سماء المعدن المضلّع باتجاه أعمدة الضوء المتسللة من الثقوب. جناحاها يرفرفان في صمت.

كان يُعدُّ نفسه لسنوات سجن بلا عد وقد مات المدير فور نزول القنينة على جبهته. لم ير جبهته مفلوقة يغمرها الببسي. رأى خط الدم الأحمر المستقيم

ينزل على التجاعيد ويغيّب الملامح التي طالما تمنّى العبث بها. كان صوت ما شبيه بصوت أمه يهمس في أذنيه. يمتد مثل خط طويل من ليلة إلى أخرى. يحدّثه حديثاً موصولاً عن موت المدير. يملأ رأسه ويغطّي على كل صوت عداه. لكن المدير لم يمت. نام في الغيبوبة شهراً وفي مستشفى الموانئ شهرين. كانت أم سعود تذهب صباح كل يوم من أيامها إلى المستشفى. ترتدي عباءتها وتخرج على لحم بطنها. تقف في الباب بانتظار أول فرصة لتدخل مع عمّال المستشفى. في وقفتها تسمع الأجنحة الكبيرة القوية تخبط الهواء. ترى مَلَك الموت كلما أغمضت عينيها ينزل بجناحيه الضوئيين من نافذة الردهة. فتفزُّ من نومها وتظل مستيقظة بانتظار النهار. تبقى في ممر الردهة حتى خروج كيورك أبو غازي أو بطرس أبو أوغيناك. تسأل أياً منهما سؤالاً واحداً لم يتغير. كلمة واحدة لم تضف إليها حرفاً:

ـ مات؟

كانا يجيبان بحذر في الأيام الأولى. بصوت لا يكاد يسمع وهما يحرصان على النظر بعيداً عن عينيها اللجوجتين. لكنهما أخذا يبسمان خلال الأيام الأخيرة ابتسامة أرمنية خفيفة ولا يُجيبان. ثم أخذت تعاند أحلامها وتخطو باتجاه باب الردهة بدرفتيه المتحرّكتين. تسرق نظرة سريعة من فتحته الزجاجية. تدفعها الرغبة في النظر إلى المدير لعلّها تتخلص من الملاك الذي ينزل. يُثقل صدرها ليلة بعد ليلة. لعلّها توقف دم الرجل وهو يلوّث لياليها ويقطّر على أرض الغرفة. قطرات ثقيلة لها صوت. كانت في وقفتها تترقّب الموت. تتسمع لخفق أجنحته غير مصدّقة أن بإمكان الرجل أن ينجو. أتصوّرها في اللحظة التي تقلّب فيها مخاوفها. تسرق نظرة من فتحة باب الردهة أشبه بأم داوود

بتحديقتها المفزعة. أم داوود التي تعرف أموات المعقل كما تعرف أبناءها. كان ترصّد الموت يداخل بين ملامحهما. يمنحهما وجهاً واحداً فزعاً مجهد القسمات.

بعد مرور الشهرين خرج المدير مرعوباً من كل شئ. من العمال. من بنات التعبئة عاريات الصدور. من بهيجة. من شبح سعود الذي يطارده كلما أغمض عينيه ساحباً وراءه حبل مشنقة أو مثقّباً بالرصاص. يقترب منه. يفتح دونما صوت فمه المدمّى. يُغلقه ويُفلت الحبل الملوّث وقد خانته قواه. يُحسه ثقيلاً. يتهاوى على رأسه كأنما كان معلّقاً فوقه بجسده المثقّب. يا لهول الأشباح حينما تتهاوى. يُحسُّ لسقطته ألماً يكاد ينفجر له رأسه. في النقطة التي نزلت عليها قنينة البيسي.

بيد حاول كبح ارتجافها وقّع المدير أسفل ورقة إفادته. بعد أيام من مغادرة المستشفى. وقد سأله المحقق:

ـ هل أنت واثق مما تقول؟

سكت قليلاً وهو يحدّق في جرح جبهته الطري ثم أضاف:

ـ تنازلك عن القضية يعني أن الولد سيفلت منها. عام أو عامان على أبعد تقدير.

مكث سعود في سجن البصرة ثلاثة أعوام وسبعة أشهر وخمسة أيام. في

الساعة التاسعة من صباح يوم الثلاثاء السابع عشر من تموز أُطلق سراحه ـ ولم يُكمل محكوميته ـ مع من أطلق سراحهم بمناسبة الذكرى السادسة لثورة تموز المجيدة. في الثامن عشر من تموز ـ ولم يكن قد مرّ على إطلاق سراحه سوى يوم واحد ـ سحبت كريمة ستارة نافذة غرفتها. فتحت النافذة ورأته. كان واقفاً على رصيف المنزل قريباً من سياج الحديقة الخشبي القصير. مكتّف اليدين. شعره طويل يقف على رأسه في خصل لم يمسسها المشط منذ وقت بعيد وذقنه نابتة. كانت سمرة بشرته قد بهتت قليلاً حتى بدا أقرب إلى شحوب المرض بوجهه الدائري الضعيف. وجه رجل سجين لم يشبع بعد من شمس البصرة. في تلك اللحظة أحسّت أنها لم تكن تحيا في قاع وحدتها. في جوفها الحجري. إلا من أجل صاحب هذا الوجه. منصتة لنداء روحه الذي أضاء لياليها. إنه هو بقامته القصيرة وشعره الواقف على رأسه واستدارة وجهه. لكنه كان قد كبر خلال سنوات سجنه الثلاث عشرَ سنواتٍ أو أكثر. لم يكن الزمن بالنسبة لهما واحداً. كان زمنه قد جرى سريعاً. كأن عجلاته تفرم السنوات. كان يصوّب عينيه نحوها بالنظرة التي مازالت ترعبها كلما تذكرته. النظرة التي عصرت قلبها يوماً حتى آخر قطرة من الدم. وتمنّت لو تركض. تفرّ من صمته ومن غضب نظرته. لكنها أحسّت قلبها ممتلئاً بالدم الساخن. سمعت نبضه يتصاعد بقوة إلى رأسها. فأحسّت بدوار عادت معه إلى غرفة المكتب. إلى ضربة الباب العنيفة. إلى اليد والقنينة والدم الأحمر المتدفق مثل عين ماء.

كأنها لم تغادر لحظتها تلك بما جرّت عليها من أحداث. منذ الخطوة التي

اندفعت فيها داخلة إلى المعمل حتى وقوف سعود خارج النافذة. استعادت أحداثها بشريط مشاهدها ضعيف الإضاءة سيئ الصوت. تتداخل فيه الملامح وتختلط الأصوات. أناس يغيبون. يمحون ويختفون. وآخرون يدخلون. صورة بعد صورة كأنها تتصفح ألبوم حياتها. كأنها تغرق في وقفتها أو تموت. تنزل إلى قاع لياليها المعتمة. ليال من الوحشة الصافية والوهن العميق. تستعيد صور حياتها في رمشة جفن. من دون أن تُدرك أن الصور تكذب. وهي التي وقفت ذات يوم هناك. صامتة أمام عين الكاميرا. لم تكن أبداً هي.

لم تكن هي مَنْ خطت داخلة إلى المعمل. لم تكن مَنْ وقفت في غرفة الإدارة. لم تكن مَنْ سمعت الصوت ورأت الدم. كانت كريمة أخرى. كريمة التي تزوجت بعد أشهر قليلة من حادثة المعمل. عاشت حبيسة غرفتها. تدفع أمها صحن طعامها من الفتحة أسفل الباب من دون أن تكلّمها كلمة واحدة. تضرب الباب بقبضتها المضمومة. قبضة عاملة خدمات في قسم البستنة والتشجير في شركة الموانئ. وتدفع الصحن. كما كانت تفتح الباب نصف ساعة قبل أن تمضي لعملها. تسمع كريمة المفتاح يدخل في فتحة المزلاج وترى الباب يُفتح فتذهب بعد دقائق إلى الحمّام وتعود ولا ترى أمها. كان وقتاً عجيباً. تتمدد فيه على سريرها. تنظر طويلاً إلى مروحة السقف. تضع الوسادة على وجهها وتبكي. تبكي بصوت مكتوم. تبكي بلا صوت. يأخذها التعب وتتقطع أنفاسها فتسمع وشيشاً. وشيشاً عاليا يتصاعد من

حولها ثم ينخفض كما لو أن أحداً يهز شجرة كبيرة يابسة الأوراق. أحياناً كانت تسمع خطوات أمها وهي تقترب من الباب في وقت متأخر من الليل. تقف خلفه لحظات ثم تمضي بالخطوات البطيئة نفسها. تتصورها تضع أذنها على باب الغرفة علّها تسمع أبنتها تكلّم نفسها. تصرخ أو تبكي أو تتنفس. عبر الباب الموصد كانت ترى أمها تعظُّ على شفتها. ترى عينيها تدمعان. كم تمنت وقتها لو كانت قد صرخت بكريمة قبل أن تخطو داخلة إلى المعمل. قبل أن تمضي خلف بهيجة مثل حيوان أعمى. لكنها بقيت صامتة. تنظر لها وقد أكملت خطواتها ثم تهاوت في غرفة المعمل الصغيرة المكيّفة. ترى الدم ينفجر ويلوّث الجدران. فزّت على صوت أمها وقد وقفت في فتحة الباب. لم تخط إصبعاً واحداً داخل الغرفة. وهي تدعوها لأن تبدّل ثيابها وتتبعها إلى غرفة الاستقبال.

ـ والله سأزوّجك حتى لو لواحد من مخابيل البصرة.

أقسمت بصوت مكتوم كما لو كانت تتوعد نفسها.

لم يمرّ أكثر من أسبوع على قسمها حتى كانت كريمة قد تزوّجت من هلال بداي محمد صيوان. أحد أبناء أقرباء أمها الأباعد وقد حفظت اسمه الرباعي فور أن نطق به قاضي الأحوال المدنية في دائرة عدل المعقل. انتقلت إلى منطقة الهارثة خلف جسر الحديد لتعيش في بيت طين بغرفتين صغيرتين مع هلال وأبيه وأمه وأختين صغراهن تكبرها بما يقارب العشر سنوات. لم يكن هلال مخبلاً. كما أقسمت أمها. ولم يكن كامل العقل. كان بين هذا وذاك. يركض بخطواته السريعة على أرض الحقل الفسيحة المزروعة بالخيار

خلف المنزل. قافزاً بين السواقي الصغيرة وقد رفع ذيل دشداشته. عندما يهدّه التعب يعود ليضع رأسه على ساقها وينام. ينام فور أن يُغمض عينيه فيبدو غريباً أمام نظراتها بوجهه الأمرد اللحيم وعينيه الصغيرتين كأنه وجه دمية بلاستيكية ذوّبت شمس الحقل قسماته. لم يكن الزواج بالنسبة له أكثر من ساق لدنة يرمي رأسه عليها وينام. لأقل من شهر بقيا في إحدى غرف المنزل وباقي العائلة في الغرفة الأخرى. قبل أن يكتمل الشهر عادت معه من الحقل فوجدت الأختين سبقنها إلى الغرفة بخزانة ملابسهن ودولاب زينتهن مغبش المرآة فأصبحت الغرفة مثل مخزن موبيليات مستعملة. ولم تعد من السهل الحركة فيها. أخذت تنام مع هلال في الحوش الواسع. على طابوق الأرضية المرشوش. تنظر إلى سماء الله الواسعة. ظلمتها بلا حدود ونجومها منثورة مثل حبات سمسم دقيقة لامعة. تصلها أصوات عربات خيل تعبر الجسر أول الفجر. الجسر يطقطق والخيول تحمحم. تشقُّ ستارة الصمت الباردة وقد انقطعت الكلاب منذ وقت عن النباح. أتعبتها أصواتها في عتمة الليل فآوت إلى برودة أول الفجر ونامت. تعاودها نظرته بعد أن تمرَّ الخيل وتعود مفاصل الجسر لسكينتها. تُغمض عينيها وترى ملامحه ضبابية تقترب منها. تلفّها بسرعة وتصميم وتُنعش قلبها. في تلك اللحظات فحسب تكتمل هدأتها وتنام. في الأيام الأخيرة من الشهر زارهم أبو وهاب. خال هلال. منذ أن سمعت باسمه أخذت تفكّر بثلثي هلال. الثلثين اللذين يشبهان الخال. لكن هلال لم يكن يشبه خاله ولو بعشر واحد. ذلك ما رددته مع نفسها وهي تجلس في ظلمة الغرفة. تنظر من فتحة الشُبّاك. تتابعه منذ دفع الباب ودخل. ظل واقفاً بعض الوقت. بشاربه الغليظ ودشداشته الرمادية وشماغه المنقّط الملفوف على رأسه. على وجهه ظلال انفعال مكتوم. كأنه قطع الطريق إلى

البيت يؤجج انفعاله. يقلّبه على كل وجه ملقّناً نفسه ما سيقول. ركضت أم هلال نحوه مرحبة. لم تسمع كريمة صوتها. رأتها تفرش بساط الصوف في منتصف الحوش ثم تذهب إلى المطبخ وتعود بصينيتها الصغيرة وقد وضعت عليها قدح ماء واستكان شاي. جلس على البساط يطقطق بمسبحته البنيّة الطويلة كبيرة الحبات ويحدّث أخته التي جلست منحنية الرأس أمامه بصوت أقرب إلى الصياح. يملأ المنزل ويفيض:

ـ كل شي إلا العرض.

قال.

ـ ما بقي أحد في البصرة إلا وسمع بسالفة معمل الببسي.

سكت مصوّباً عينيه نحو الغرفة. كأنه يسمع وجيب قلبها في الظلمة ويراها. كانت عيناه وحشيتين. أحسّت كريمة نظراتها تقطّعها بلا رحمة. طقطقت حبات مسبحته. ثم أضاف متسائلاً:

ـ شنهي احنه نايمين على ذانه لو نبلعهه ونسكت علمود المره ابلاش؟

لم ترد أم هلال بكلمة واحدة. بقيت مطأطئة الرأس. نظرت كريمة من فتحة الستارة ورأته جمع حبات مسبحته في قبضة يده ونهض مغضباً. شعرات شاربه المصبوغ تبرق في حوش المنزل لامعة السواد. كان أبو هلال قد عاد من الحقل ووقف قريباً من الباب بجسده الضئيل الذي يغطّ في دشداشته. دفعه أبو وهاب بكتفه في طريقه إلى الخارج.

لن يكون من الصعب على من يرى أبا وهاب بقامته المعتدلة ووجهه الذي لوّحت الشمس قسماته ويسمع صوته الآمر الناهي معرفة عمله. كان

نائب ضابط في الجيش. بدأ مع حرب السبعة وستين نائب عريف مشاة وفي حرب الشمال أصبح رئيس عرفاء حتى وصل إلى رتبة نائب ضابط واستقر به الحال مأمور مشجب في راس البيشة. أقصى مدينة الفاو. بعد سنوات من إمرة فصيل الأشغال في السرية الثانية من فوج المشاة الأول. وعلى الرغم من كونه نائب ضابط درجة ثامنة يقف الصقر على شاربه لم تكن كنيته تخلو من عقوبات. عقوبات متفرّقة على ذنوب مختلفة اقترفها وما يزال. في أول شبابه تزوّج ثلاث مرّات خلال أقل من سبع سنوات على أمل أن يُخلّف لكنه لم يُفلح في أي من زيجاته الثلاث. من فتحة ستارة النافذة نظرت كريمة ورأته للمرة الأولى والأخيرة. لم يقيّض لها أن تراه مرّة أخرى. بعد التحاقه من إجازته الدورية بأسبوع زاره هلال إلى وحدته في راس البيشة. استيقظ مبكراً كعادته. تناول فطوره وارتدى دشداشة العرس البيضاء وتوجّه إلى كراج الهارثة. قال لكريمة بأنه سيذهب إلى خاله في الفاو. عاودتها نظرة الخال الوحشية على الفور. ولم تسأله عن ضرورة ذهابه وصدى صياحه ما يزال يلعلع في الحوش. ذهب في حوالي السادسة صباحاً. عاد بعد الظهر في الساعة الثالثة أو الثالثة والنصف. كان يحمل صرّة ظل يُمسكها حتى خرجت أختاه من الغرفة. أغلق الباب واقترب من السرير. تلامعت عينا الدمية وهو يفتح الصرّة. كان فيها ثوبان نسائيان مطرزا الصدر اشتراهما من سوق البنات في العشار وكيس مملوء بالحنّاء.

ـ إنها حنّاء الفاو.

قال مبتسماً وهو يقلّب كيس النايلون الشفاف.

لم تسمع كريمة جملته ولم تر ابتسامة الدمية نصف البلهاء. شهقت وهي

ترى المسدس ملفوفاً بقطعة قماش مشجّرة. كان هلال يتحدّث عن شط الفاو الكبير وسوقها بدكاكينه الضيّقة وأنواع الحناء قبل أن يتحوّل لسوق البنات متحدّثاً عن الثياب الملوّنة والعطور وعلب الماكياج. مندهشاً من زحام الناس فيه. وكانت تعود بذهنها لثلثي الولد اللذين يشبهان الخال. مدّت يدها. وضعتها على المسدس الملفوف. هالتها صلابة الحديد ففتحت عينيها وهي تنظر لهلال. إلى عينيه مباشرة. ترك زحام الناس في سوق البنات وانقطع عن الكلام. لفَّ الصرّة كما لو لم ير كريمة أو يسمع شهقتها ونهض عن السرير. رأت دشداشته من الخلف وقد ترك العرق عليها خطوطاً ملحيّة متكسّرة. فتح الدولاب ودسَّ الصرّة في الخانة العلوية خلف الثياب. لكن كريمة التي ما زالت تعيش خوف الدم المتدفق وترى الجسد يتهاوى كلما أسلمت نفسها للنوم اندفعت نحو الدولاب. فتحت بابه متسائلة عن المسدس. قبل أن تصل يدها إلى الرف كانت يد هلال تهوي على وجهها. يده الثخينة التي نحتتها يد المسحاة.

بعد أيام من زيارة هلال تسلّم النقيب فيصل غيلان نسخته من أوامر الفوج. قرأ كتاب التكليف السري والشخصي. نزل بنظره إلى هامش آمر الفوج المدوّن بالحبر الأخضر وهو يُحيل إليه مسؤولية التحقيق في قضية سرقة المسدس المثبتة أوصافه أعلاه. بعد دقائق فحسب كان النائب ضابط مأمور المشجب يقف أمام باب غرفته مقيّد اليدين. من دون بيرية ولا نطاق. بدلته ملوّثة وبسطاله غير مربوط. وجهه شاحب. بانت نقرتا وجنتيه واضحتين

بعد حلاقة صباح السجن الرسمية العجولة التي خلّفت جراحاً صغيرة على جلده الناشف. وعيناه محمرتان. لم يكن قد مرّ على النقيب وقت طويل منذ وصل إلى فوج المشاة الأول منقولاً من مقر مديرية الاستخبارات العسكرية العامة. لم يجد ضابط ركن الفيلق أبعد من الفاو مكاناً لنقيب منقول من المديرية فاستقر به المقام في سرية المقر. قريباً من راس البيشه. أقصى نقطة على حدود العراق الجنوبية. وكيلاً لضابط استخبارات الفوج. هو امتحانه الأول إذن. أحسَّ فور قراءة الكتاب أن الجميع يراقبونه من مدير المديرية حتى أصغر ضابط في سرية المقر. يقفون صفاً طويلاً حسب الأقدمية. يلتفون حول مكتبه وينظرون. أغلق ملفة البريد. رجع بكرسيه الجلد المرتفع ذي العجلات. وضع يديه على سطح المكتب ونهض فارع الطول عريض الكتفين. عدّل نطاقه. رفعه إلى الأعلى فتوسط جسمَه النسرُ المعدنيُ المنقوشُ داخل حلقته. كان المكتب نظيفاً يلمع خشب الدولاب على يمينه بخانات نُثر خلف زجاجها عدد من الكتب الحزبية والملفات. على يساره نزلت ستارة قرمزية ثخينة عُلّقت فوقها صورتا الرئيس البكر ونائبه بالأبيض والأسود متجاورتين. الرئيس الشيخ ونائبه الشاب متقابلان. ينظر كل منهما إلى الآخر. مشى نحو الباب متمهلاً في هواء الغرفة المكيّف ونادى بصوت آمر. قاطع ونهائي. فُتح الباب على الفور وأُدخل مأمور المشجب. قبل أن يتسن له أن يشعر ببرودة هواء الغرفة أو ينظر ويرى وجه الضابط القريب كان الأخير قد رفع رجله اليمنى ليعالجه بضربة قوية بمقدمة بسطاله الأحمر على خاصرته. ضربة موفقة. انحنى نائب الضابط معها وهو يشهق بصوت ملأ الغرفة. قبل أن يُكمل شهقته ويستردَّ أنفاسه كان النقيب قد سدّد ضربته

الثانية. أسفل الوجه المنحني تماماً. على الفك الذي انكسر على الفور. سمعه النقيب يطقُّ مثل جوز الهند. فسقط نائب الضابط مندفعاً على الباب. فمه مفتوح على آخره. وعيناه مفتوحتان.

ـ وين المسدس؟

سؤال ظل النقيب يكرّره ثلاثة أيام بنهاراتها ولياليها من دون أن يسمع ولو حرفاً واحداً من نائب الضابط الذي لم يكن يفتح فمه حتى يُضرب من جديد. اقترب منه وهو يكزّ على أسنانه. مدّ يده وقبض على لمّة شعره الذي سقطت أغلب صبغته فبدا رمادياً مبقعاً. جاهد نائب الضابط كي يفتح فمه وقد أحرق النقيب شاربه الغليظ بقدّاحته. تصاعد الشياط ملوّثاً هواء الغرفة. وسال الدم من فتحتي أنفه المسود وأعلى شفتيه.

لن تنتهي اللعبة على الفور. ولن أسمح لك بالسقوط في الجولة الأولى. سأتركك تتهاوى على الحلبة لأبدأ معك من جديد. سأحرمك رحمة الضربة القاضية. حتى إذا لم تعد لديك القدرة على جرّ النَفَس أعلّقك من أنفك في سقف الغرفة وأتركك تشخر ليل نهار. أقطّر لك الهواء قطرة قطرة. لن أدعك تقرّ وتعترف في الوقت الذي تريد. تنتظرك أيام طويلة مظلمة لن تتمكن حتى من عدّ ساعاتها. إنهم جميعاً ينظرون. أنا متأكد من ذلك. من مدير المديرية حتى أصغر ضابط في سرية المقر. سأريك إياهم. واحداً واحداً. يقطعون أنفاسهم ويراقبون. من أجلهم ستطول جولات اللعبة وتمتد. من أجل أن يعلموا مَنْ هو النقيب فيصل. النقيب الذي أخرجوه بجرّة قلم من

المديرية. وألقوا به مثل لعبة عاطلة إلى مزبلة الفاو. إلى منفى راس البيشه. ولكي يزيدوا في إهانته يرمون له عظمة منخورة مثلك. عظمة بجلد ممصوص وشوارب حقيرة. يمتحنونه بجيفة. لن أجعلك تعترف سريعاً. هيهات. ولن أقطع يدك التي سرقت المسدس قبل أن أسحقها بالبسطال. ثم ألطمهم بها. باليد التي سرقت على وجوههم الثخينة اللامعة. وجوههم الحليقة المعطّرة. ليعرفوا أن كل لحية ولها مقص. وأن مقص النقيب لن يعمى حتى وإن ألقوا به إلى البحر. عليهم أن يعرفوا ما يمكن أن أفعله بك وبهم. ليدركوا أن النقيب فيصل غيلان لن يكون لعبة أبداً.

مرّت على دخول أبي وهاب إلى غرفة النقيب أربعة أيام مكتملة هجم بعدها رجال أمن منطقة الهارثة في الساعة الثانية فجراً على البيت. رجال بلا عدد ضربوا باب الصفيح بأقدامهم ودخلوا. ملأوا المنزل وصعدوا إلى السطح. فتحت كريمة عينيها ورأت أبا هلال بلباسه الداخلي البوبلين شاحب البياض واقفاً على السطح وقد فزّ من نومه. كانت تنام مع هلال في حوش المنزل فيما صعدت العائلة لتنام على السطح. كان أبو هلال يصيح ملوّحاً بيده كأنه يخبط الظلام لكنه سكت عندما أصبح أحد رجال الأمن قريباً منه وأوقف تلويحه. وضع الرجل يده على صدره العاري ودفعه. رأت جسده الضئيل يتهاوى. بخفّة وبلا صوت. يغيب خلف سياج السطح الواطئ. اقترب أحدهم منها. انحنى وأمسك بصدر فانيلة هلال الذي مايزال يغطُّ في النوم إلى جانبها ورفعه بعنف. كانت حركة كافية ليفزّ فزعاً. قبل أن يصحو

ليفهم ما يجري سحبه الرجل إلى الغرفة. بقيت كريمة مسمّرة على فراشها وقد أحسّت نغزاً متصلاً في أطراف أصابعها. كأن مئات من النمل تدبُّ فيها. ثم تحوّل النغز إلى خدر. خدر يتصاعد مع الدم ويشلُّ أطرافها. كانت تحرّك عينيها. تراقب الرجال يجولون في المنزل. يدخلون ويخرجون من الغرف إلى المطبخ ومن المطبخ إلى الحمّام. وصلتها أصوات أبواب تُخلع وزجاج يتهشّم وقدور تُرمى على الأرض. سمعتهم يتحدّثون. أصواتهم متداخلة وكلماتهم غير مفهومة.

بعد أقل من أربعة أشهر أُعدم أبو وهاب في سجن الفيلق بتهمة السرقة وتزويد أعداء الثورة بالسلاح. أُبلغت عائلته بالأمر بورقة رسمية موقّعة ومختومة من قبل الفرقة الحزبيّة في المنطقة مع التأكيد على عدم إقامة مجلس عزاء له. في حين ظل مصير هلال مجهولاً منذ أخذه رجال الأمن فجراً مع المسدس الملفوف بقطعة قماش مشجّرة. لم يجرؤ أهله أول الأمر على السؤال. كانوا يكتفون بالبكاء داخل المنزل. يتحلّقون في الحوش ويبكون: والده وأمه وأختاه. تنظر لهم كريمة من مكانها على درجات السُلّم حتى يتعب الجميع. العائلة يُتعبها البكاء. ينخفض نشيجها. يتقطّع ثم يذوب. وكريمة يُتعبها النظر. تغيم الوجوه أمام عينيها وتتداخل الأشياء. إن نهنهة خفيفة. شهقة. نفثة ألم. كانت كافية لتهدم شيئاً في روحها. حيث جلست على السُلّم صامتة. تنظر إلى العائلة وهي تحفر بئر ألمها. تزيدها مع كل إطراقة عمقاً وظلاماً. لكنهم مع غيابه الذي طال بدأوا يفضفضون. يجلس الأب بعد صلاة العشاء

على دكّة بيت أحد الجيران. يشرب الشاي ويحدّث الجار عن هلال الذي أُخذ في ليلة ظلماء. يتحدّث حتى ينخفض صوته ثم يجهش بالبكاء. يمسح دمعاته القليلة بطرف شماغه ثم يطرق صامتاً. كان يهرب في لحظات صمته من أنين زوجته الذي يفلق الحجر. أنين موصول لا يقطعه ليل ولا نهار. بدأته بالحديث إلى هلال بصوت خفيض كأنه يقف على بعد خطوة منها. ثم أخذت بمناداته كما لو كان يبتعد عنها. ثم بدأت تحدّث نفسها كأنها لم تعد تراه. تناجيها. تنغّم نجواها بالحديث عن حمام الدوح وعن الليالي التي لا يطرُّ لها صبح. كان هلال بابتعاده قد أخذها بعيداً. أبعد من الليل والنهار.

ذات ليلة دفع أبو هلال باب الصفيح الذي ما يزال معوجّاً منذ ضربه رجال الأمن. وقف في الحوش وأبلغ أم هلال بصوت مرتفع على غير عادته بما توصّل إليه:

ـ سنبحث عن هلال في سجون البصرة.

لم تعرف كريمة إن كانت فكرة البحث عن هلال من بنات أفكار الأب أم أن أحداً من جيرانه اقترحها عليه. وليت بحثها توقف عند سجون البصرة. فقد بدءا رحلة طويلة مضنية لم تكن البصرة بسجونها الوفيرة إلا أولى محطاتها. كانا يمضيان مع أول خيوط الفجر في كل يوم زيارة. قريباً من بوابة أحد السجون يجلسان على الرصيف مع الكثير من الناس كما لو كانا على موعد معه. يدخل الناس من حولهم وينتهي وقت الزيارة وهما على الرصيف. ينهضان مع أول الخارجين من باب السجن. يتوجهان نحوه بالسؤال عن

هلال. من زيارة لأخرى ومن سجن لسجن ومن سؤال لسؤال حتى أنهيا سجون البصرة كلها. ثم أخذا يسافران إلى المحافظات. إلى الناصرية والعمارة والسماوة والكوت والحلّة. محافظة تجرُّ أخرى وسجن يؤدي إلى سجن وصولاً إلى سجن بغداد المركزي. شاهدا بوابات كل سجون وسط العراق وجنوبه تقريباً وجلسا على أرصفتها وسألا الخارجين من زياراتها من دون أن يُمسكا بخيط يدلهما على مكانه أو يحظيا بخبر.

بعد انقطاع سفرهما عاشت كريمة فصلاً جديداً من الخوف فقد عادت أم هلال لسابق أنينها. كان تعب الطرق الطويلة المجدبة خلال أيام السفر يهدّها فتسقط فور عودتها إلى المنزل مثل كومة من الحجر. تنام يوماً كاملاً أو أكثر. لا يشعر باستفاقتها أحد إلا بما يتصاعد من حجرتها من أنين. أدركت كريمة من انخفاض صوت المرأة إنها لم يعد بمقدورها البكاء بصوت عال. كانت ترمي خيط أنينها أبعد مسافة ممكنة لعل هلال يتعثر به يوماً. لكن الخيط انفلت من يدها ولم يعد صوتها يتجاوز غرفتها. تصورتها كريمة قد وصلت إلى حافة القبر حافية بثوبها الأسود المنفوخ على جسدها الضئيل. لكنها لم تذهب إلى القبر. ظلت تدور في المنزل وتحدّث نفسها حديثاً طويلاً غير مفهوم. ارتعبت كريمة حين رأتها ذات ليلة تصعد الدرج. راقبتها وهي تروح وتجيء على السطح. ثم تنزل لتكمل دورتها في البيت. كانت تلتقط بعض كلماتها كلما أصبحت قريبة منها. كلمات غريبة متداخلة. تملأ رأسها. تُثقل كاهلها وتشوّشها. مدن بعيدة شوارعها مزدحمة ووجوه أناسها غريبة متربة وبوابات. بوابات حديد

عالية خلفها بوابات حديد. كانت تئن كأنها تحمل كيس مسامير. كيساً كبيراً بمسامير. ليست مسامير الخشب الدقيقة. خفيفة المعدن. المضلّعة. لامعة السواد. ذوات الرؤوس المسطّحة. وليست مسامير الستيل الخشنة. الثقيلة. المحددّة. مطفأة اللمعة كالفضّة المتربة. ذوات الرؤوس المفلطحة مثل خوذ فرسان الأفلام في حروب القرون الوسطى. إنها مسامير من نوع غريب تملأ أكياساً كبيرة مثل أكياس الدقيق فينوء الناس بحملها. تراهم يهيمون من غير هدي. يدورون في بيوتهم. يقطعون الشوارع. يعبرون الأزقة والساحات من دون أن يُدركوا أنهم داروا في المنزل أو قطعوا شارعاً أو عبروا زقاقاً أو ساحة. تلفُّ بهم أرجلهم في كل مكان. تراهم حيث لا تتوقع أن تراهم. ولا تراهم حيث تتوقعهم. لكنهم يسيرون. بطيئين. ليس لخطوهم صوت إنما خيط من أنين واهن موصول.

بعد مرور أشهر على غياب هلال حملت كريمة صرة ثيابها التي جاءت بها وعادت إلى المعقل القديم. مثل نقطة في آخر سطر. قررت أن تضع نهاية لوجودها في بيت أبي هلال. انتقلت من النوم وسط المنزل إلى الغرفة وقد أخذ شبح المرأة يُرعبها. بقيت أياماً طويلة في الغرفة التي تغيّر حالها منذ دخلها رجال الأمن ولم تعد تشبه مخزن موبيليات. صارت أشبه بدكاكين سوق الجمعة. رطبة ومعتمة. تملؤها خزانات خشب مصدّعة مخلوعة الأبواب وسرير تناثر قطن حشيته ودواليب هُشّمت مراياها. لم يرفع أحد باباً مخلوعاً ولم يثبت مسماراً منذ فجر رجال الأمن العاصف حتى أصبح المنزل بأناسه وأشيائه مثل أطياف ذكرى بعيدة غابرة. أخذت الأشياء تحاصرها

منذ وصول خبر إعدام أبي وهاب. تزحف نحوها حتى تكاد تخنقها. مثلما كان وجه هلال الأمرد اللحيم يتراءى لها أينما التفتت. وجه الدمية بعينيه الصغيرتين يفتح فمه ويناديها. تراه يمشي حافياً في ممر مترب ضيق وطويل بدشداشته البيضاء التي لوّثها العرق. تتمنى ـ في رؤيتها ـ أن تكون يداه خاليتين. لكنه كان يحمل الصرّة التي جاء بها من البصرة. يشدُّ عليها بيديه الاثنتين. لم يكن يتحدّث لكنها تُحسُّ صوته يتصاعد من حولها. مؤسياً وأليما. أخذت أيامها تتساقط مثل حبات رمل. لسقوطها رنين موحش بطئ. كانت تريد أن تخرج من عتمة الدكان ورطوبته. تنفلت من خوف شبح المرأة. تترك أشياء المنزل وراءها وتُفلت جسدها من خيوط شبكته. حملت أثوابها القليلة التي جاءت بها من المعقل ووضعتها في صرّة. ربطتها بقوّة وتمهّل وخرجت من الغرفة. كانت تعلم أنهن ينظرن لها: أم هلال وأختاه. يرفعن وجوههن المجهدة وينظرن. أمه تعود من ضباب رحلتها وأختاه من صمتهن الطويل. لم تلتفت إلى الخلف ولم تحدّث أحداً.عيناها تنظران لباب البيت المفتوح وقدماها تخطوان فوق طابوق الحوش ويدها تُمسك الصرّة. كانت تتحرّك بقوة قرار لا رجوع عنه. حينما وصلت إلى بيت المعقل القديم كان بابه مقفلاً. وضعت الصرّة في الحديقة الصغيرة وجلست متكئة على الجدار بانتظار عودة أمها من العمل. في الوقت الذي جلست فيه أمام المنزل أخذت تُنصت لشعور ينبض في دواخلها. شعور عميق يتحرّك مثل نبتة في قاع مائي مظلم. تتنفس غرابته وتعيش ذهوله. وهي تُحس بنفسها مثل طيف كثيف مصبوب في جسد. كأن أنين أم هلال تخلل روحها يوماً بعد يوم. وأحال جسدها إلى ذرّات دقيقة. ذرّات لا تُرى. وها هي تعود إلى المعقل القديم

عابرة أكثر من جسر. متخطية أكثر من شارع وسوق لتستقر في حديقة منزلها. من دون أن تُدرك إن كان الآخرون يشعرون بها حقاً. إن كان أحد ما يملك القدرة على رؤيتها في صحراء وحدتها الواسعة. بعد أذان الظهر بقليل رأت أمها قادمة يجلّلها السواد على عادة نساء البصرة العاملات. سواد مترب باهت يلفُّ العباءة والثوب والطرحة البريسم مكركشة الحواف ويفيض على النعال البلاستك والجوربين. فتحت الباب ودخلت كأنها لم ترها. تركت الباب مفتوحاً وراءها. بقيت كريمة بعد دخولها متكئة على الجدار. حملت صرّتها ونهضت متوجهة إلى غرفتها. انتظرت أن تأتي أمها لتغلق الباب. تعاود سجنها. لكنها لم تأت ولم تغلق الباب. تركتها تدور في المنزل من دون أن تقترب منها أو تحدّثها. كانت الأم وهي تغرق في صمتها تنفض عن نفسها آخر ذرّات مزاجها العائلي. تخلّص روحها من عنكبوت العلاقة التي طالما شعرت بها قاسية. أقسى من قدرتها على المواجهة. أقسى من قدرتها على الاحتمال. تصورتها أول الأمر تدخل غرفتها حال عودتها من العمل. تترك الباب مردوداً ولا تخرج حتى صباح اليوم التالي متوجهة إلى عملها. لكنها اكتشفت أنها لم تعد تبقى في المنزل. اكتشفت ذلك من الطعام الذي يظلُّ على حاله كلما أعدّت الصينية لغداء أمها أو عشائها وتوجهت إلى الغرفة. كانت تجد الطعام بعد ساعات على حاله لم تمتد له يد فتُلقي به إلى سلّة المهملات. تغسل الصحون وتعود إلى غرفتها.

كانت الأم قد غادرت المنزل بعد أيام من عودة كريمة لتعيش مع أختها في منطقة السكك. قرب الجامع الصغير. لولا القطار الذي وضع حداً لحياتها

لما عرفت كريمة بذلك. لم تُدرك الأمر حينما سمعت طرقات متواصلة على الباب يخالطها صياح غير مفهوم. استعادت على الفور فجر رجال الأمن الذي ما يزال يرنُّ في رأسها. استجمعت قواها ونهضت. كانت تفكّر أن تغلق باب غرفتها وتلملم نفسها في إحدى الزوايا البعيدة وتنتظر الضربة التي يقتحمون المنزل بها لكنها فتحته وخطت في الممر الضيّق القصير باتجاه باب المنزل. لم تكن الأصوات بضجيجها المتلاحق تشبه أصوات رجال الأمن. كانت أصوات صبية فزعين. فتحت الباب ورأتهم. عشرات من الأولاد الذين لم تر وجوههم من قبل يصيحون في وقت واحد. يخبرونها عن القطار الذي فرم الجسد.

شلَّ الخبر الحركة في الشوارع وقطع دفق الحياة في البيوت. لم يسبق أن صدم قطار المعقل امرأة من قبل. كانت أم كريمة أول امرأة تدخل إلى حكاية المعقل بجسد مفروم على السكة. حتى الحوادث التي يرويها الآباء في مناسبات نادرة كانت تُستعاد كما تُستعاد حكايات الجن والسعالي. حكايات يتبادلها الناس في أوقات أسمارهم من دون أن يفكّروا أن بإمكان إحداها أن تحدث حقاً فيتلبّس القطارَ جنونٌ يصدم معه الناس. دخلت أم كريمة الحكاية ولم تغلق الباب وراءها فأخذ أهل المعقل يتلصصون علّهم يستعيدون حكايات آبائهم عن صبيان أفلتوا من أيدي أمهاتهم راكضين صوب القطار. كأنه كان يسحرهم بكتلته الحديد وبريق زجاج نوافذه الذي يتخلّل التراب حافاته. يناديهم بصوته المعدني وسرعته الخاطفة. لكن أهالي المعقل كانوا يستعيدون

ليلة مقتلها حكاية ونّاس. الحكاية التي ظلت تدور في سماء أسمارهم المنجّمة وهم يحاولون تصوّر الرجل يسابق القطار الصاعد إلى بغداد. لم يكن ونّاس يركض على السكة. كان يقف على رصيف محطة قطار المعقل مثل رمح فارع الطول. ومع الصافرة العالية بدويّها المعدني يبدأ بالركض. بطيئاً أول الأمر كأنه يجاري القطار. يلاطفه. ثم يوسع خطواته. يقفز عن رصيف رقم واحد بكتلته الكونكريت العالية خارجاً من المحطة. قدماه الحافيتان تتركان أثراً خفيفاً على الرمل المفروش على جانب السكة. ودشداشته تهفهف. كان سوّاق القطار يُخرجون أيديهم من النافذة ويلوّحون وهم ينظرون في المرآة الجانبية الكبيرة. يرونه يصغر كلما ازدادت سرعة القطار حتى يغيب. لا أحد يعلم من أين جاء إلى المحطة أو يتذكر الوقت الذي وصل فيه. كلما أخذهم الحديث للمحطة وجدوا أنفسهم يتحدّثون عنه. كأنه والمحطة شيء واحد لا انفصال فيه. لم يكن يبعده عنها صيف أو شتاء. يستقبل النازلين من القطار بابتسامة عريضة كأنه كان ينتظرهم جميعاً وقد فكّك تعب الجلوس الطويل مفاصلهم ويودّع الصاعدين بثيابهم المكوية وشميم عطورهم. يحمل حقائب هذا ويلاطف صغار ذاك. لم يكن يقبل عن أعماله أجراً. الغريب عن محطة قطار المعقل فحسب هو من يمدُّ يده في جيبه كي يعطيه مقابل عمله. يهز ونّاس رأسه قبل أن تخرج اليد من الجيب ويمضي إلى آخر الرصيف بانتظار الصافرة. مَنْ الذي همس في أذنه أن السباق مع القطار لا يكون إلا نداً لند؟ مَنْ أوحى إليه أن يركض وحيداً بعيداً عن ضحكات الناس على الرصيف وعن تلويح السوّاق؟ يقف خارج المحطة محتمياً بعتمة أول الليل. قدماه

تدوسان على خشب السكة المشقق القديم وظهره للقطار الذي يدمدم منتظراً اقتراب الصوت. مترقّباً اندفاع عجلاته اللجوج لينطلق بأقصى سرعته.

تحرّك القطار خارجاً من المحطة. ضوء عربة قيادته يشقُّ الظلام في قوة وتصميم. بعد أن ترك السائق المعقل وراءه ليمضي في المساحات الرملية المعتمة لمح شبحاً بعيداً يلوح أمام القطار. كما لو كان يركض بين قضبان السكة. لم يبد واضحاً على الرغم من قوّة الضوء وسرعة القطار وهو يلتهم المسافة. حدّق ملياً أمامه لكنه لم ير شيئاً. في رمشة جفن تراءى له أن القطار صدم شيئاً ما. صدمة خفيفة عارضة. في محطة الشعيبة شبه الفارغة قبل أن يتوجّه لمكتب الناظر ألقى نظرة سريعة على مقدّمة القطار. كانت نظيفة كما خرج بها من محطة المعقل. هزّ رأسه وتبسّم لخيالات أول الليل. بعد تلك الليلة لم ير أحد ونّاس. لا داخل المحطة ولا خارجها. لكن سواق قطار المعقل الصاعد إلى بغداد ظلوا يُحسون صدمة خفيفة تتكرر أول الليل على مقدمة القطار قبل الوصول إلى الشعيبة.

ظلت كريمة وحدها في المنزل في الأيام التي تلت وفاة أمها. لم تأت أي من نساء العائلة للإقامة معها على عادة نساء المعقل أيام الوحشة. كانت تقضي نهارها بالدوران حافية. تجول بين الغرف. من غرفة إلى أخرى. حتى إذا حلَّ الليل دخلت غرفتها وأقفلت الباب. كانت تُحسُّ وجه أمها قريباً يملأ المنزل

وتُنصت لخطواتها كلما تقدم الليل. تتمنى أن تقطع أنفاسها فتسمع وشيشاً. وشيشاً عالياً يتصاعد من حولها ثم ينخفض كما لو أن أحداً يهز شجرة يابسة الأوراق. ثم تُنصت للخطوات. كما في الليالي البعيدة. تقترب من الباب. تقف خلفه ثم تعود كما جاءت. تتصوّر أمها تضع أذنها على باب الغرفة علّها تسمع أبنتها تكلّم نفسها. تصرخ أو تبكي أو تتنفس. عبر الباب الموصد تتمنى لو ترى أمها تعظُّ على شفتها. ترى عينيها تدمعان بعيداً عن اللحظة التي خطت فيها على السكة من دون أن تسمع جلجلة القطار. كان الوشيش يتعالى. لكنها لن تسمعه مهما أنصتت كما لم تسمع جلجلة القطار. كانت تسمع صوت أبي هلال وحده يأتيها مواصلاً حديثه عن ابنه. ابنه الذي تبدّد مثل كف تراب في يوم ريح.

بعد أن انقطع سفر أم هلال وأبيه من دون أن يُمسكا خيطاً يدلّهما على مكانه. في الأيام التي دخلت الأم فيها نفقها المعتم. لم يعد أبو هلال يمكث في المنزل. كان يخرج مع طرّة الفجر إلى الحقل. ولا يعود إلا بعد أن تسحب الشمس آخر خيوطها. نهار طويل يقضيه في الحقل وعندما يتعب يتمدد تحت أشجار السدر العالية. قرب الساقية. يُغمض عينيه ولا ينام. كانت كريمة تسحب نفسها من تحت سماء المنزل الملبّدة. تتخفف من أثقالها. متوجهة إلى الحقل. تراه يعمل بجسده الضئيل. يغرز مسحاته في الأرض ثم يُسند كتفه عليها وينظر. لم يكن ينظر لشيء محدد. تطول وقفته حتى يبدو مثل فزاعة بدشداشته مرفوعة الذيل. ثم ينتبه كما لو كان يفزُّ من نوم ثقيل. يرمي المسحاة

ويتوجّه إلى أشجار السدر. قريباً من الساقية. قطعت الحقل وجلست تحت الأشجار. كان قد تمدّد وأغمض عينيه. في الوقت الذي اتكأت فيه على الجذع. منصتة لدفق المياه مستنشقة روائح السدر المدوّخة. سمعته يتحدّث عن حقل أو مقبرة. عن هلال وهو يرفع الفانوس. وعن رجل ميت بشعر أصفر مثل خيوط الذهب. التفتت نحوه ورأت وجهه يتغضن. يزداد ذبولاً مع حديثه. كأنما كان يسير نحو شيخوخة مضاعفة.

مع ضربات أقدامهم العنيفة وهي تخضّنا. ترفعنا من سابع نومة لترمي بنا إلى جهنم الحمرة. عرفت أنها اللحظات الأخيرة التي نراه فيها. لن نراه مرّة أخرى. سيمضي بعيداً. مثل كف تراب يتبدد مع أول هبة ريح. لن يبقى له أثر. من أجلها كنت أروح وأجيء مع كل زيارة. من أجل أنينها الذي يفلق الحجر. من محافظة لمحافظة. ومن سجن لسجن. أرض تشيلنا وأرض تحطنا. وليس لهلال أي أثر. تبدّد كما تبدّد رجلُ أناء الخزف. هل تصدّقين بأننا وجدنا أناء خزف مدفوناً في الحقل. كان هلال يحرث. مسحاته تشقُّ الأرض وتنزل. حتى أحسَّ بها تصدم شيئاً صلباً. شيئاً قوياً يمنع المسحاة من النزول. حفر من حوله حفرة صغيرة لكي يرفعه ويرميه بعيداً. لكنه كان يتسع مع اتساع الحفرة وينزل بنزولها. كنت تحت شجرة السدر. متمدداً كما أنا الآن. عندما رأيته يركض نحوي. وجهه يتفصد بالعرق. كنا في أواخر الشتاء في الأسابيع التي تتكاثف فيها خضرة الزرع. ومع ذلك كان وجهه يتفصد بالعرق. خبّرني عن الإناء الذي وجده في الحفرة. فركضت معه. لم

أصدّق الأمر فنهضت سريعاً وركضت معه. منذ أكثر من أربعين عاماً وأنا أحرث الحقل وأزرعه. لم أترك شبراً واحداً فيه لم يمرّ عليه سن مسحاتي. فصلاً وراء فصل وسنة بعد سنة. لم أصدّق أنني أخطأته كل هذه السنوات. يا ربي. كانت الحفرة عميقة مثل بئر. في وسطها ينتصب إناء خزف غطى جوانبه الطين.

ـ لا تفتحه.

قلت له.

ـ أعد الطين إلى الحفرة حتى نرى ما نفعل. وإياك أن تخبر مخلوقاً بما وجدت.

ليال طويلة لم أنم فيها. ملأت ليرات الذهب غرف المنزل. وتصاعدت رنّاتها في ليل الحقل. كانت في أقصى الحقل غرفة طين مهملة. أغلقت نافذتها الوحيدة بالطين. وثبّت لها باباً محكماً من الصفيح. وفي ليلة ظلماء بردها يقطع الخشم خرجت مع هلال إلى الحقل. أخذنا نحفر من جديد حتى أخرجنا الإناء. حمله هلال بجهد على ظهره وسرنا إلى الغرفة. كانت مضاءة بثلاثة فوانيس علّقتها على الجدران. ثلاثة فوانيس تنوّر الذهب. أدخل هلال الإناء وأغلقت الباب. كان الإناء عالياً. أعلى من بني آدم. فمه مسدود بقطعة من الصلب ورقبته قصيرة تنفتح على تدويرة عريضة ثم يأخذ بالضيق. كان أشبه بتابوت واقف. حاولت مع فمه الصلب بالفأس. كان يقدح مع كل ضربة ويرنّ. رفع هلال أحد الفوانيس عن الجدار وقرّبه من الإناء. تصاعدت رنّات الفأس في رأسي وصعدت إلى أنفي رائحة النفط المشتعل. ضربت الإناء بقوة. على تدويرة الكتف. فتكوّم قطعاً صغيرة ولم تكن في داخله ليرة ذهب. كان في داخله رجل. أي والله. رجل طويل مسبل اليدين. مازلت أراه

شاخصاً أمامي حتى هذه اللحظة. عيناه مغمضتان وشعره ينزل على كتفيه خيوطاً من ذهب. يغطي جسده العاري كفن أبيض. قماشه خشن حائل اللون. من ارتجافة ضوء الفانوس على الجدار أحسست ارتجاف يد هلال. ثم أخذ يتراجع حتى سمعته يصطدم بالباب. فتحه ببطء. مع أول هبة هواء باردة دخلتْ الغرفة سقط الجسد كومة من تراب. فتح هلال الباب بقوة وركض. كان يركض مثل شبح في ظلمة الحقل. يركض على سجادة الزرع السوداء. يشقُّ الظلمة بفانوسه الذي انطفأت ذبالته. دخلت الريح عنيفة إلى الغرفة فحملت تراب الجسد معها. لم تبق على الأرض المكنوسة ذرة واحدة. منذ الفجر الذي ضربوا الباب فيه ودخلوا. عرفت بأننا لن نراه مرّة أخرى. وأنه لم يكن أكثر من كف تراب.

رأته كريمة واقفاً على رصيف المنزل بمواجهة النافذة. قريباً من سياج الحديقة الخشبي القصير. كأنه كان واقفاً منذ سنوات. كأنه لم يبرح مكانه ولم يُغيّر وقفته. يُنزل يديه أو يميل برأسه. يُغمض عينيه أو ينحني. صوت ما. شجي وغريب. كان يهمس أنه هناك منذ زمن بعيد لا بدء له ولا انتهاء. زمن تخافه. خوفها المرّ. وتشتهيه.

بكاميرا البولورايد أواصل أمنيتي بالتقاط الصور
لكل وجه صورة
ولكل حكاية

لم نفكر في الذهاب إلى بيت كريمة لولا يوسف الذي جاء إلى بيتنا بعد أيام من انتهاء العزاء. حدّثني عن صفاء الذي لم يعد كما لو كان يخبرني بحدث قاهر جديد. كأننا لم نحدّثه في المطار عن كريمة وقد جاءت إلى العزاء وأخذته مع كيكي وثياب سعود.

قال:

ـ سأذهب إلى المعقل القديم. هل تأتيان معي؟

ـ إلى المعقل القديم.

قال.

لم يقل إلى بيت كريمة التي مازالت حتى تلك اللحظة لغز فتوتنا بحضورها الغريب وظلها الباهر الذي يبلل حياتنا. ظل المرأة التي قفزت بقدرة قادر من أحلامنا الأولى. من دوار أوهامنا. من سحر مجلاتنا. من خوف مازلنا نتحسس نبضه تحت جلودنا. نُحسُّ وخزه الموجع خلف آذاننا وعلى نهايات ألسنتنا وأنامل أصابع أيدينا. بعد أكثر من ساعة فتح ياسين باب سياج الحديقة القصير. على بعد خطوات من المكان الذي سأتصور سعود وقف فيه بعد يوم واحد من إطلاق سراحه قبل أكثر من أربع سنوات. ودخلنا معا. وقفنا أمام باب البيت بطلائه الأخضر وقد خفّفت الشمس قتامته وشقّقت قوامه الكثيف. ننظر معاً إلى الجرس الذي لم يجرؤ أحد منا على لمسه.

كان صفاء جالساً على أرضية غرفة الاستقبال المفروشة بطلاء جدرانها

الغريب. كل جدار بلون. بهجة ألوان لم نكن قد رأيناها من قبل. تمتد على الجدران المضاءة بمصابيح بلوريّة نابتة في قلب زهرات لوتس خزفيّة. لورقاتها الرشيقة انحناءة طيّعة والتفاف هيّن بهي. تلمس كؤوسها الثلجية المخددة مذهبة الحواف. تُلقي بضوئها على الستائر البنفسجية. البيضاء. المشجّرة بأغصان طليقة مورقة. أغصان تحلّق على القماش اللامع الثخين. كان صفاء سعيداً. أسعد مرضى تكسّر كريات الدم من أطفال المعقل. نظر لنا وطيف ابتسامة يلوح على شفتيه ثم عاد إلى ألعابه. كانت أرض الغرفة ممتلئة بدمى لا عدّ لها. دمى من كل شكل وحجم ولون. دببة رمادية. وقطط مبقّعة. وتماسيح وديناصورات وفيلة وفئران وغزلان وضفادع. كان كيكي مبتهجاً هو الآخر.

لكزني ياسين بخفّة وهو يهمس متسائلاً:

ـ أرأيت؟

كنت مأخوذاً بصفاء الذي بدا مشرقاً وسط غابة حيواناته الملوّنة. كان أقرب إلى دمية طفل منسيّة بلونه الشاحب وحركة رأسه البطيئة وعينيه الجاحظتين. سحبني ياسين إلى الزاوية البعيدة حيث وقف يوسف تحت صورة فوتوغرافية بالأبيض والأسود. بدت من بعيد مثل أية صورة لزوجين حديثي العهد بالزواج لكنها مع اقترابي منها بدت صورة لا مثيل لها. كان سعود يرتدي بدلة أنيقة مخصّرة لقماشها بريق. سترتها مزرّرة. شعره الواقف القصير يلتمع كما لو كان مبللاً وعيناه تبسمان. يمد يده اليمنى لتستقر في حنو ولذاذة على خصر كريمة. تحتوي الخصر وصاحبته وتستريح على نسيج ثوبها الأبيض بقماشه المنمنم واسع الصدر عالي الكتفين. كانت ابتسامتها باهرة في

التفات قليل. كأنها التفتت لتتأكد من صاحب اليد التي تنام على خصرها. لتُكمل يقينها بنظرة حانية. كانت تُنزل على وجهها برقعاً شفافاً. لم يغيّب ملامحها بقدر ما منحها لمسة ضبابية لا تكون إلا لعشاق أبديين. صورة لا مثيل لحديثها عن حب اللمسة الحانية والالتفاتة الشغوف. حب ينبض مثل أنفاس الياقوت. أخذتني مثلما أخذت يوسف وياسين لعالمها الذي يتحرّك بين الأبيض والأسود. يتكثف في فتنتها ويُضيء. بختم ستوديو كارو على حافة اطارها الداخلي صافي البياض. بسحبة السين البليغة مثل انطلاقة سهم والتفافة الكاف الحانية. كان كل صوت قد انقطع من حولي. كأن يداً أدارت زر الصوت في شوارع المعقل القديم. خفّضته شيئاً فشيئاً حتى تلاشى وذاب. كانت لحظة الصورة بالنسبة لي لحظة نظر خالصة. لم تشبها شائبة من صوت. ومثلما أخذتنا كريمة إلى بهجة الصورة وطيف عالمها أعادتنا منه وهي تسأل من داخل المنزل إن كنا ما زلنا في الغرفة. أرابها صمت المنزل فتساءلت قبل أن تدخل بصينية المعدن مزهّرة الحواف وقد وضعت عليها خمسة أكواب بمكعّبات ثلج تتصادم مع خطواتها داخل السوائل رمانية اللون. ترنُّ على زجاج الأكواب المبلّلة. لرنينها شعور منعش بهي.

ـ هل رأيتم كيكي كم يبدو مرحاً؟

وضعت أمام كل واحد منا كوباً. وقد عدنا من الزاوية البعيدة لنجلس على الأريكة ولم يغادرنا بعد سحر الصورة. حملت كيكي بيد ومنحت يدها الثانية لصفاء الذي نهض بهدوء ليجلس على حجرها. رفعت كوب العصير إلى فمه وهي تتحدّث عنهما ـ كما تتحدّث عن أخوين ـ وقد ملأا عالمها. كنت أختلس النظر إلى الصورة. إلى وجهها خلف برقع الضباب وأعود لأنظر

إليها وهي تميل على صفاء. بين الوجهين مسافة واختلاف. ليس الزمن وحده مسؤولاً عنها. وليست السمرة التي ترتسم بُنيّة أمامنا. إنما وحشة الغياب وقد رفعت عن الوجه الحي لمسة البهاء السعيدة التي يضفيها الحب على الناس والصور. وضعت الكوب على الطاولة ثم مسحتْ على رأس صفاء وقالت بصوت خفيض وعينين ملتمعتين. كما لو كانت قد تذكرت شيئاً. كما لو كانت تحدّث نفسها:

ـ أوصاني سعود قبل أن يذهب أن أعتني به.

في اللحظة التي أتذكّر فيها جملتها وأرى التماعة عينيها. أُنصت لصوتها كما لو كنت أسمعه الآن. وأستعيد ملامحها المخطوفة وهي تتحدّث عن سعود:

ـ قبل أن يذهب.

يمكنني أن أدرك السبب الذي دفع يوسف ليتنقل بأخيه من مكان إلى مكان ومن حكاية إلى حكاية. مكان موحش بعيد يدرأ به قسوة صورة الجريدة ووحشيتها. وحكاية معتمة ترفع عنه ثقل الموت وفداحته. مكان وحكاية يخفّفان كثافة الموت وهو يمحو سعود. يبدّده. يُحيله إلى فروة رأس ملتصقة على جدار. فور خروجنا من بيت كريمة رجعت إلى البيت. كان أبي واقفاً في الحديقة. قرب النخلة العالية. حدّثني فور دخولي من باب الحديقة. قال شيئاً لم أسمعه على نحو دقيق. توجّهت مباشرة إلى الغرفة. فتحت الدولاب وسحبت الدفتر. دفتر الصور. مررت على الصور واحدة إثر أخرى. من دون أن أرى أياً منها. كانت صورة سعود المنشورة في الجريدة. صورته الأخيرة.

صورة موته الفادح. ترنُّ في رأسي رنين جرس معدني ثقيل في ليلة شتائية معتمة. رنيناً صدئاً وحزيناً. سحبتها من الصفحة التي وضعتها فيها مقابل صورة عبد الحليم على سرير المرض. من دون أن أنظر لها ثنيتها ووضعتها في جيب قميصي. صعدت إلى السطح. بخطوات بطيئة غير مسموعة كما يصعد شبح أو يتحرّك ظل. أحسست بهواء السطح العالي وما زالت صورة سعود وكريمة تتملّكني. تأخذني بعيداً لفتنة عالمها. أخرجت الصورة وأنا أحسُّ لأول مرّة أن لها ثقلاً غريباً كأنها لم تكن صورة ورقية مقتطعة من جريدة. مزقّتها قطعاً صغيرة. أصغر ما يمكن لأصابعي أن تقطع. ثم نثرتها. عالياً نثرتها.

مثل حشرات مجنّحة تطير. تحلّق في سماء المعقل. يدفعها الهواء فتتقلّب وتدور قبل أن تختفي.

تمنيت أن أعثر على نسخة منها في غرفته. غرفته التي لم أدخلها منذ ذهب. على الطاولة أو في دولابه. دولابه الذي ترك مفتاحه معلّقاً تتدلى منه مدالية برجل ثخين يضم يديه إلى صدره. كلمات هندية على وجهها الآخر. فتحت الباب ودخلت. في المرّات الماضية التي كنت أدخل فيها إلى غرفة سعود لم أكن أبحث. كنت أتوجّه مباشرة إلى الطاولة الصغيرة. أسحبها من مكانها. أقرّبها من دولاب ملابسه وأصعد. من تحت المجلات المتروكة على سطح الدولاب ألتقط أقدمها. المجلات التي ينساها عادة. وربما تظلُّ في باله ولا يعبأ بها ولا

يفكر بالعودة إليها. لكنني بحثت هذه المرّة. بحثت تحت الملابس. بين أوراقه. هويات عمله وجنسيته وبعض الأوامر الرسمية التي تحتوي على اسمه ـ كان مؤشراً فيها كلها أمام اسمه بالقلم الجاف ـ لكنني لم أجد. كل شئ كان مرتباً. حدّثنا يوسف بصوته الذي ينثني. يتطوى مثل قماش نسائي. كانت هناك صور قليلة له وواحدة لصفاء وأخرى لرجل غريب. هندي باسم يرتدي عمامة ويكحّل عينيه. لا أدري لماذا تصوّرته يشبه سعود. على الرغم من أنه لم يلبس عمامة في حياته ولم يطلق لحيته أو يكحّل عينيه. إنها صورة ستوديو صغيرة. ورقها ما يزال لامعاً كأنها التُقطت البارحة. حافتها نظيفة والختم واضح خلفها. إطاره بيضوي وحروفه هندية معوجة مثل حروف المدالية أو حروف الكلمات التي نراها في مقدمات الأفلام. في صوره القليلة كان وحيداً. يقف على ظهر إحدى البواخر ببدلة عمله. في المسفن. أو يجلس في حديقة من حدائق المعقل بقميص لا أتذكر أنه لبسه يوماً. هل هي إحدى حدائق المعقل حقاً؟ وهل كان القميص قميصه بقماشه المخطط الخفيف؟ يبدو مثل شباب أفلام الخمسينيات العربيّة بذراعي القميص القصيرين وياقته المفتوحة مثل جناحي فراشة. كان يشبه أحمد رمزي. لا أتذكر في أي فلم. ولكنني تصوّرته يشبهه بقامته القصيرة وقميصه المخطط وشعره الطويل. لم يكن يبتسم. كانت شفتاه مطبقتين في جميع الصور. ولم يقف أحد إلى جانبه. كان وحيداً. وكانت السماء فوقه صافية. سماء الصور كانت صافية. لا طير و لا غيمة ولا حتى ذرة تراب أو حشرة. كأنها ليست سماء البصرة التي نعرفها. تصورتها سماء مرسومة تمتد من صورة إلى أخرى. يتبدّل الفصل وتختلف ملامح سعود وتتغيّر ملابسه والسماء كما هي. زجاجيّة صافية. على الرف. فوق الملابس كان هناك كتاب. لم أهتمّ له عندما وقعت عليه عيناي حالما فتحت الدولاب.

سحبته ولم يكن ثقيلاً كما يوحي حجمه. كتاب كبير حوافُّ غلافه مكسورة. لم أتبين صورته بوضوح. كأنها أمواج متلاطمة وحوت. حوت يرفع ذيله. ذيله المقوّس العملاق. تحت سفينة لا يبين إلا جانبها. تصفّحت أوراقه الخفيفة الصفر وأفزعتني كلماته. كلماته الدقيقة الملظومة. في داخله صورة. صورة مقطوعة من جريدة. إنها لمؤلفه بلا شك. هرمان ملفل. هكذا طُبع أسفلها. الاسم نفسه على غلاف الكتاب. فوق عنوانه الغريب. موبي ديك. سأقرؤه يوماً. أقاوم فزعي من حجمه الكبير و كلماته الملظومة وأقرؤه لأحدّثك عما فيه. أما صورة ملفل فبإمكانك الاحتفاظ بها. سيكون جميلاً أن تُلصقها في دفتر الصور. على ورقة قريبة من صور عبد الحليم. أو صورة صفاء. شيء ما يجمع بينهم. شيء أحسسته ولم أعرف ما هو. ربما ستعرفه أنت. تمنحك محبتك الكبيرة لدفتر الصور فرصة لملاحظته واكتشافه. سنمضي عندها إلى النهر. تسبقني أنت وياسين إلى الضفة وألحق بكما بعد أن أُسند الدرّاجة إلى الرصيف. أنزل بخطوات سريعة متحاشياً أشواك الضفة وعندما أكون قريباً منكما تحدّثنا عن السر الذي يجمع بين الصور. كم تمنيت أن أعثر على نسخة. نسخة واحدة. لكن يبدو أن لا مكان لصورة سعود وكريمة غير بيتها في المعقل القديم. في الزاوية البعيدة تحت أضواء ورود الخزف.

شغلتني جملة يوسف. فكّرت طويلاً إن كان ثمة ما يجمع بين صور عبد الحليم وصورتي صفاء و ملفل. شيء ما يقرّب بينها ثم يمدّ خيطاً شفيفاً ليربطها بصورة عبد الكريم قاسم. وجدتني أعود إلى الدفتر. لا لألصق صورة ملفل على ورقة منفردة لا تقابلها صورة أخرى. مثلما تمنيت حال

رؤيتها في يد يوسف. وقد غمرتني بهيأة صاحبها الغريبة الآسرة. بل لأتأمل من جديد صور عبد الحليم وصورة صفاء بكاميرا البولورايد التي وقف فيها خلف النافذة وبيده كيكي. كيكي بين يدي الملاك. هكذا كتبت أسفلها بالقلم الجاف. كانت تعيش وحدتها هي الأخرى. شيء ما فيها كان مختلفاً عن آخر مرة رأيتها. بعد أن سحبت صورة سعود المنشورة في الجريدة. من الصفحة المقابلة لعبد الحليم على سرير المرض. ونثرتها عالياً. رأيتها تطير. مثل حشرات صغيرة. حشرات ترسل ضوءاً. ضوءاً دقيقاً يؤلمني. إنها تكذب. أقول لنفسي ثم أحدّثها بصوت مسموع.

انظر لهم
بأعينهم نصف المفتوحة وملامحهم الشاحبة
أنصت لنداء أرواحهم
أعرف أنهم لم يكونوا يوماً أشباح الصور الحزينة
لا عبد الحليم ولا صفاء ولا خالي ولا سعود ولا عبد الكريم قاسم حتى بصورته المفزعة ولا هرمان ملفل
أشباح أسرتها لحظة الضوء
أبدّتها في التماعة عابرة.

سحريّة وملغزة.
شبحيّة و نابضة.

صورة موظف سلك الجمارك الأميركية وقد ارتفع شعره. حرّكته رياح بحرية مضيئة فارتفع فوق جبهته الواسعة البيضاء. مقدمته تلمع مثل شرائح من معدن نقي. مثلما التمع أعلى شاربه الذي بدا فضياً وسط لحيته الكثيفة السوداء. عيناه الصغيرتان ثاقبتا الحدقتين مثل نقطتين شاخصتين. دقيقتين وحاسمتين. يملؤهما تصميم مكابر ويفيض. تحت قوسي حاجبيه المرسومين. محددي الاستدارة. من يرى الصورة بجلسة صاحبها الأمامية المتأملة الحازمة. بيديه المعقودتين على صدره ـ قبضة يسراه البيّنة تحت إبطه تقول الكثير ـ وبسترته السوداء الأنيقة كثيرة الثنيات. وتشغله ـ بعد ملامح صاحبها الدقيقة على صفحة وجهه وقد زادتها شبهة الطول سحراً ـ وردة العنق المربوطة أدنى من تقويرة الياقة. سيتأكد أنه ينظر بعيداً. أبعد من تراجيديا الزمان التي مات فيها مغيّباً مهملاً مجهولاً. مترقّباً الحوت. من جزيرة الحواتين إلى رأس هورن. بزعنفته وحردبته وذيله العظيم. باندفاعته الشاهقة. عندها ستكون صورة هرمان ملفل أكثر صور الدفتر كذباً.

قلبها اللعين الكذوب.

لبّها الشبحي المتجسد في هيأة بشرية عابرة.

ثلاث سفن اشترتها شركة الهند الوطنية من وليم ستيفنسون هوغمان. الانكليزي الشهير. مالك مؤسسة ما وراء البحار. اثنتان منها تحملان اسمين ملكيين هما فكتوريا وإليزابيث. والثالثة حملت اسماً بحرياً رنّاناً بترنيمة

ساحرة هو موبي ديك. ولأن العقد كان يتضمن شرطاً غريباً. على عادة عقود مؤسسة ما وراء البحار التي تكشف عن شخصية صاحبها. يتضمن إبقاء أسماء السفن المباعة كما هي لمدة خمس سنوات في الأقل. يحق للجهة المشترية بعدها أن تفعل ما ترغب. تبقي الأسماء أو تغيرها. صَعُب على شركة الهند الوطنية أن تمنح ملكتي بريطانيا خمس سنوات طويلة تجولان فيها بقيادة طاقم هندي في المياه الإقليمية. خصوصاً وإن الهند كانت تعيش وقتها نشوة انتصارها على الباكستان في حرب 1971 التي قادتها أنديرا غاندي. اعترض المفاوضون الهنود على الشرط. وضعوا تحته خطاً بالقلم الحبر. نظروا إلى بعضهم. وأجّلوا التوقيع على الصفقة أكثر من مرّة. كان الأمر بالنسبة لهم لا يقبل النقاش. العلم الهندي يرفرف والباخرة تمخر مياه الهند وما بينهما ملكة بريطانيا. حلم كولونيالي آخر لا يقبل النقاش. الصحافة. من جهتها. لم تترك الأمر يمرُّ بصمت. وجه قديم للصراع فجّرته التسمية حتى وصل ملف الصفقة بتفاصيلها الدقيقة إلى مكتب رئيسة الوزراء. الطيار الشاب راجيف غاندي كان في مكتب والدته بزيّه الرسمي قادماً لتوه من رحلة خارجية. من المطار مباشرة إلى المكتب. لم تعتد رئيسة الوزراء الحديث في أمور المكتب خصوصاً خلال الزيارات الخاطفة ذات الصبغة العاطفية. لكن قضية السفن كانت قد تحوّلت إلى ما يشبه قضية الرأي العام لذلك لم يبد من الغريب أن يميل الحديث القصير نحوها كما يميل ديك الرياح في يوم عاصف. وقتها ولأول مرّة عرف راجيف اسم السفينة الثالثة الذي كان بعيداً كلياً عن عرش صاحبتي الجلالة فأغفلته الصحافة ولم يعبأ به أحد.

ـ موبي ديك؟

تساءل بمودة بالغة وعلى شفتيه يلوح شبح ابتسامة. نظرت أنديرا غاندي نحوه متسائلة:

ـ ألم تسمع الاسم من قبل يا عزيزي!

في كانون الثاني عام 1965 كان راجيف طالباً في جامعة كامبريدج. وكانت الإيطالية الجميلة سونيا ماينو تعمل في مطعم الجامعة لتغطية نفقات دراسة اللغة الانكليزية في مدرسة لينوكس للغات. سونيا التي جاءته بدورق الشاي كانت تضع في جيب تنورتها كتاباً بان جزء من غلافه أعلى صدريتها القصيرة. صبّت الشاي في الكوب أمامه. نظرت إلى البخار يتصاعد وتساءلت بصوت خفيض وبانكليزية صارمة:

ـ هل من رغبة أخرى يا سيدي؟

رفع راجيف رأسه. نظر للإيطالية الجميلة ثم سأل بلطف:

ـ هل يلزمونكم في المطعم بقراءة المغامرات القاتلة مع الحيتان؟

ابتسمت سونيا وقد خلعت صرامتها الانكليزية المفتعلة. وبيدها اليسرى سحبت الكتاب من جيبها. قلبته وقالت:

ـ كنت أتصورها ستكون مغامرة لغوية فحسب لكن ملفل أوقعني في الدوامة.

ـ دوامة ملفل أم دوامة آخاب؟

قال راجيف كما لو كان يُعيد على نفسه سؤالاً طالما شغله.

بقي الكتاب في حوزة سونيا حتى عام 1968 حينما توجّهت مع راجيف إلى الهند ليتزوجا هناك. استقر في مكتبة العائلة إلى جوار ترجمة هندية للرواية.

قال راجيف:

ـ ما رأيك لو أعطينا مستر هوغمان اسمي الملكتين وأبقينا موبي ديك؟

تساءلت أنديرا غاندي بتمهّل:

ـ وهل ترى بأنه سيقبل بمثل هذا الاقتراح؟

أجاب راجيف معوّلاً على معرفته بمزاج الشخصية الإنكليزية:

ـ لا أعتقد بأنه سيتردد في القبول.

وهكذا كان فقد وجد مستر هوغمان في اقتراح شركة الهند الوطنية تقديراً لاختياره الشخصي الذي يؤكد عشقه القديم لعوالم البحار. العشق الذي لم يعثر على من يدوّن تفاصيله بدقة وشغف وحيوية وجنون مثل الأميركي اللعين هرمان ملفل. أعاد الاقتراح لنفسه بريق نشوة قديمة ليس لها مثيل. استدار بكرسيّه نصف استدارة إلى اليمين ونظر إلى الصور المعلّقة على الجدار. إطاراتها الأنيقة متشابهة بخشبها البُني الداكن الصقيل. صور نساء ورجال

وأطفال. صور سفن جديدة عملاقة ترسو على موانئ شبه فارغة. تتوسطها صورة ملفل وهو يضع يديه مقبوضتين على صدره. ردّد مع نفسه صيحة آخاب برائحتها المسكرة ورجعها الأخاذ:

ـ أجل. ثب وثبتك الأخيرة نحو الشمس يا موبي ديك!

بالنسبة لسعود كان الاقتراح باباً واسعاً فتحه كومار.

هبّت منه رياح بحرية رطبة. رائحتها لا تنسى.

أما بالنسبة لكومار فكان الاقتراح حكاية.

حكاية جميلة تخلب لبَّ أصدقاء بعيدين وتسكن أعماقهم.

من جانبها. لم تكن أنديرا غاندي تتصوّر الاقتراح إلا علامة أخرى من علامات ذكاء الطيار الشاب.

أما بالنسبة لراجيف فلم يكن الأمر أكثر من غطسة هنيئة في بحر الحب.

البصرة 2008- 2010

تُفيد الرواية من أحداث معلومة وقعت عبر ما يتجاوز العقد من الزمان، وأخرى لم تقع، وهي تؤاخي بينهما في إنتاج عالمها واستحضار شخصياتها التي نزلت من دروب الواقع ودروب الخيال. وبهذه المناسبة يتوجّه المؤلف بوافر الشكر للشخصيات التي شاركته الحياة في الرواية، وقد عاشت سنواتٍ طويلة معه: ظلالاً مضيئة لبشر هائمين، قبل أن تحكي حكايتها وتحيا عالمها وتأوي إلى صورها منفصلة عنه إلى الأبد.

صدر للمؤلف :

ـ (**على دراجة في الليل**)، قصص، دار أزمنة، عمّان 1997.

ـ (**العبيد**)، كتاب قصصي، دار أزمنة، عمّان 2000.

ـ (**ملاعبة الخيول**)، طفولات قصصية، ط1/ دار الشؤون الثقافية، بغداد 2003، ط2/ دار السياب، لندن 2008.

ـ (**سرد الأمثال**)، دراسة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2003.

ـ (**الفريسة**)، رواية، دار الشؤون الثقافية، بغداد 2004.

ـ (**كتاب المراحيض**)، رواية تعرّف، دار أزمنة، عمّان 2007.

ـ (**سلوان السرد**)، دراسة، دار الشؤون الثقافية، بغداد 2008.

ـ (**إغماض العينين**) قصص، دار أزمنة، عمّان 2008.

ـ (**المكان العراقي/ جدل الكتابة والتجربة**)، معهد الدراسات الإستراتيجية، بيروت 2009.

ـ (**بلاغة التزوير**) دراسة، الدار العربية للعلوم، بيروت 2010.

مدينة الصور

رواية

لؤي حمزة عباس

• روائي من العراق

كما في الخيال كان سعود يغيب. يتشظى. يموت بعد أن تسقط عليه قذيفة. أول قذيفة تُلقيها إيران على ميناء المعقل. لكنه يعود من موته في حكايات يوسف المتوالية ليُلقى عليه القبض في ليلة حالكة. يُسجن أو يفرُّ ليختبئ. في كل حكاية له غياب. وفي كل غياب يحضر الخميني. مثل طيف صامت يرفع يده من وراء جدار. حضور الإمام في الحكاية يفصل بين ميتتين يموتهما سعود. واحدة تؤكدها الصورة. الصورة التي تكذب. وأخرى تنفيها الحكاية. الحكاية التي يتسلل سعود فيها على درّاجته من دفتر الصور. من صفحته المقابلة لصفحة كيكي بين يدي الملاك. من وحشة الصفحة التي بقيت فارغة. من فراغها الذي واصل عبد الحليم النظر إليه ملتفتاً من سرير مرضه الطويل.

تصميم الغلاف: سامح خلف

ISBN 978-614-01-0217-0

9 786140 102170

أزمنة
www.azminah.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com - www.nwf.com